

مختارات
من الأدب اليونانى الحديث
فى القصة

ترجمها عن اليونانية وقدم لها : الدكتور نعيم عطيه

مختارات من الأدب اليونانى الحديث
فى القصة

ترجمها عن اليونانية وقدم لها :

الدكتور نعيم عطيه

مقدمـــة

يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى المكتبة العـربية ، فقد ضم بين دفتيه ثلاث عشرة قصة من الأدب اليونانى الحديث ، ترجمناها الى العربية من اللغة الأصلية التى كتبت بهـا ، وهى اللغة اليونانية .

ولاشك أن ترجمة الأدب وسيلة ناجعة فى تعريف الشـعوب بعضها بالبعض ، وفى توطيد أواصر الصداقة والمحبة بينها . ومن خلال أعمال عشرة قصاصين من أبرز أدباء اليونان الحديثة يمكن للقارىء العربى أن يتنسم نسمة من الهواء الطلق تسرى اليه عبر البحر الأبيض المتوسط من بلد له ماضيه التليد فى الفن والأدب ، ويشق طريقه قدما الى تبوؤ مكانته اللائقة فى طليعة البلاد ذات النهضات الأدبية ، فيصل بعض ابنائه الى الحصول على أكبر الجوائز الأدبية فى العالم ، كمـا سنرى .

القصة اليونانية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى :

ولقد كان للحربين العالميتين آثارهما على الحياة اليونانية . وقد كان لذلك انعكاسه الجلى على الأدب اليونانى الحديث ، فقد سعت التيارات الأدبية فى اليونان ــ على الأخص فى مجال القصة والرواية ــ الى الاستفادة بالتجارب المعاصرة ، سواء فى الشكل أو المضمون. فقدم كتاب اليونان انتاجهم القومى فى قالب عصرى . وتخلصوا من

الحذلقات والزخارف اللفظية ، مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم .

وقد أخذت شخصية الأديب اليونانى تتضح ، فقد طوع أسلوبه بحيث لم يعد يكتفى بأن يقدم لقارئه لوحات « موضوعية » فحسب بل استخدم لغته للتعبير عن رآه « الذاتية » من خلال اختيار موضوعاته ، وتفسيراته للمواقف والأبطال .

ولقد صاحب ازدهار الأدب اليونانى الحديث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهور مجلات أدبية أسهمت بدورها فى اثراء الحياة الأدبية فى اليونان . ففى عام ١٩٢٧ صدرت مجلة « كتابات حرة » وفى عام ١٩٢٨ مجلة « الوطن الجديد » التى اسسها ورأس تحريرها جريجوريس كسينوبولوس ثم بيتروس خاريس وفى عام ١٩٢٩ صدرت «المجلة الجديدة» ثم اعقبتها « الطليعة » فى عام ١٩٣٠ ، ثم « الطليعيون » عام ١٩٣٣ ، و « الخطوات » و « الفكر » عام ١٩٣٦ و «الكتابات اليونانية الجديدة» عام ١٩٣٧ . كما صدرت مجلات اقليمية ، فى ثيسالونيك عام ١٩٢٦ ، وكريت عام ١٩٢٧ ، وقبرص عام ١٩٣٦ . وتوالت المجلات الأدبية اليونانية بعد ذلك . بل وصدرت مجلات أدبية فى خارج اليونان مثل المجلات التى صدرت فى الاسكندرية وفى مقدمتها «الحياة الجديدة» و «الآداب» و « سرابيوم » وقد ظهرت على صفحات هذه المجلات كتابات ، كثير من أدباء اليونان الأم مثل نيقوس كازندزاكيس وكوستاس فارناليس وجورج سيفيريس .

ولقد سببت أحداث الحرب قيام « أدب المعركة » فى اليونان وقد تميز بصفة عامة بأنه ليس سردا تسجيليا للاحداث بقدر ماهو تعبير عن الوسط الذى القى فيه بالشخصيات ، والذى يشكلهم ويبدلهم حسب ضغوطه وضروراته ، وعن الوسط الداخلى متمثلا

في ادراك الكائن الانساني لوضعه الجديد ، والمشاعر التي تستيقظ في أعماقه .

وفي مقدمة الأعمال التي ولدها « أدب المعركة » « الحياة في القبر » وهي ذكريات محارب يتجاور فيها التحليق الخيالي والنظرة الفاحصة . وكان من الطبيعي أن تنضح هذه الصفحات التي كتبها ستراتيس ميريفيليس عام ١٩٢٤ بالهول ، ووحشية الانسان وضراوة الحرب ، وأحاسيس التضامن الاخوي ازاء الخطر الجماعي . أما في « الدفتر رقم ٣١-٣٢٨ » فنجد ايلياس فينيزيس يركز على مأساة الحرب من خلال التغلغل في نفسيات الأبطال ، مع التقليل من النزعة العاطفية التي نجدها عند ميريفيليس والاهتمام المتزايد بالدراما الداخلية ، واعلاء أكبر للارادة على الحتمية .

وقد كان من شأن « رواية الحرب » توجيه ضربة قاصمة الى فكرة « الأدب المحلي » فان المعاناة الكبيرة ازاء أهوال الحرب تجلو النفس البشرية ، وتخلصها من الانشغالات المحلية .

واذا كان « الوسط » الذي تحرك فيه « كتاب الحرب » أكثر ضراوة وخشونة ، الا انهم بدأوا أيضا يعولون كثيرا على عامل الارادة في دفع الوسط الاجتماعي . ومن ثم أصبح الصراع بين الارادة واطارها أكثر ديناميكية .

أما خارج « نتاج الحرب » فقد بدأ التجديد على الأسلوب القصصي وأصبح الكتاب ينزعون الى عرض الكائن الانساني في خضم الحركة ، ومن خلال تعدد الأوساط التي يتنقل بينها وتنوع الأحداث التي يمر بها ، مما ينبيء عن تعقد روحه وتشابك حياته. وبذلك أخذت الكتابات القصصية تكتسي بطابع أكثر ديناميكية ، مما أوصل الفن القصصي الى ضروب مختلفة . فظهرت الى جانب « القصة الاجتماعية » « القصة السيكلوجية » و « القصة الخيالية» و « القصة الفلسفية » .

وبعد أن كانت القصة قبل الحرب العالمية الأولى تكتفى بتسجيل العادات والتقاليد المحلية ، وتعرض الانماط البيئية ممزوجة بوصف الطبيعية المحلية أيضا، تعددت مناحى القصة ومشاربها واهتماماتها. على أن تصنيف الكتاب تبعا لذلك التصنيف الذى عرضناه للقصة ليس بالأمر السهل ، لأن الكتاب تنقلوا بين أنواع القصة جميعها . فليس من مؤلف تخصص فى « القصة الخيالية » وآخر فى «القصة السيكلوجية » وآخر فى القصة الاجتماعية » وآخر فى « القصة الفلسفية » بل اننا نجد فى القصة الواحدة أو المجموعة القصصية الواحدة أكثر من منحى جنبا الى جنب . ولنضرب مثلا على ذلك بكتابات القصاص ذيموستنيس فوتيراس (الذى ينتمى أيضا الى ماقبل الحرب العالمية الأولى) فاننا نجد النقد الاجتماعى يمتزج بالخيال . ولقد كان لهذا الكاتب تأثيره على جيل لاحق من الكتاب عرفوا « بكتاب القصة الشعبية » وتتصف أعمالهم بالبساطة المتناهية فى السرد ، وباختيار شخصياتهم من ضحايا مجتمع مريض . وقد انجذب هذا الجيل من القصاصين على الأخص الى « النزعة الواقعية » فترجموا فى أعمالهم التشاؤم المخيم نتيجة احباطات مابعد الحرب وانعكاساتها على الأوساط الدنيا والفقيرة . ونذكر على سبيل المثال فى هذا المقام « سيمفونية الخريف » لانجلو ترساكيس عام ١٩٢٩ و «أولئك الذين بقوا » لتاتيانا ستافرو عام ١٩٣٣ .

أما « النزعة الخيالية » فقد ارتبطت بكتابات استقيت من التاريخ والأساطير على الأخص . ونجد فوتيس كوندوغلو ، اهتداء بالجانب الخيالى لدى الرائد فوتيراس ، يدخلنا فى مغامرات يلعب فيها الزمن بالنفس البشرية . ونشير فى هذا المقام الى « الأميرة يزابو » لترزاكيس عام ١٩٤٥ و « نهاية ميخالوس » لكاراجاتسيس عام ١٩٤٩ .

أما « النزعة الفلسفية » فقد تميزت بطابعها الليريكى الشاعرى ونجد نموذجا طيبا لها فى « الليلة الأخيرة على الأرض » لبيتروس خاريس عام ١٩٢٤ .

على أن القصص الفلسفية والخيالية والسيكلوجية لم تخل من العناصر الاجتماعية . كل ما هنالك أن النزعة الاجتماعية تبدو أكثر وضوحا عند فريق آخر من الكتاب ملك الانشغال بأوضاع الطبقة العاملة وكفاحها كل اهتمامها . وفى مقدمة هؤلاء الكتاب ذيونيسيوس كوكينوس والسيدة ايلى اليكسيو فى مجموعتها « معارك خشنة من أجل حياة صغيرة » عام ١٩٣١ وبانيس سفاكياناكس فى مجموعته القصصية الصادرة عام ١٩٣٣ .

وقد بدأت القصة اليونانية الحديثة تتجه نحو الأدب الاجتماعى .. وقد كان فى طليعة القصاصين الذين نزعوا الى ذلك ثيوتوكيس صاحب « الشرف والمال» عام ١٩٢٠ وباروريتيس صاحب مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٢١ بعنوان « الأب » كما انتج كسينوبولس الذى ترجع سمعته الأدبية الى ماقبل الحرب العالمية الأولى ــ انتج قدرا ضخما من الأعمال ذات النزعة الاجتماعية مثل « الأغنياء والفقراء » و « شرفاء وغير شرفاء » و « محظوظون وغير محظوظين » عام ١٩٢٦ كما قدم فوتيراس منذ عام ١٩٢١ كثيرا من أعماله القصصية مثل « نور وظلال » « والحى الارستقراطى » و «الباب الحديدى » و « حضارات باطلة » .

ولقد أصبحت النزعة الاجتماعية (التى كانت بادية أيضا عند جريجوريس كسينوبولوس من قبل) ثورية وحافلة بالمطالب والدعوات الاصلاحية . والواقع أن المشكلات الاجتماعية وان كانت تشغل مقاما كبيرا فى القصة اليونانية الحديثة الا أنه يمكننا أن نقول أن القصة الاجتماعية سارت فى مسارين : الأول عنى بدراسة

البيئات الاجتماعية ، وقد ذاعت هنا الأفكارالاجتماعية والمذاهب الاصلاحية ، والثانى عنى بتقصى انعكاسات الصراع الاقتصـادى على النفس البشرية . وقد جمعت بين هذين المســارين النزعة الانتقادية ان لم يكن التمرد الصريح أو الضمنى على الأوضاع القائمة فمصير الفرد فى مفهوم القصة الاجتماعية اليونانية يتوقف عـلى ادراك متناقضات الوضع الاجتماعى ، والجهـد المبذول لتعديله وتصحيحه .

ومن الأفكار الاجتماعية فى القصة اليونانية الحديثة « فـكرة تحرير المرأة » وقد تجلت هذه الفكرة على الأخص فى قصص السيدة غالاتيه كازندزاكيس ، و « فكرة حماية الطفولة » وقد بدت فى قصص السيدة ليليكاناكو . وقد ولدت هذه الأديبة الكبيرة فى أثينا عام ١٩٠٥ ودرست الموسيقى فى سويسرا واشتغلت بالصـحافة . وكتبت مجموعات قصصية عديد ، بعضها بالفرنسية نشرت فى أمهات المجلات الأدبية فى فرنسا ، وبعضها باليونانية ، منها « الذين ضلوا الطريق » و « عذراء فقدت عذريتها » وقد قدم لمجموعتها القصصية الأولى الكاتب الفرنسى الكبير روميه رولان . وتعتبر ليليكاناكو من أنضج المواهب القصصية فى الحياة الأدبية اليونانية .

وتشتد مرارة النقد الاجتماعى عند كتاب مثل ذاسكالاكيس الذى يصور المأساة فى حياة العمال ، وعند كوكينوس وبيكروس . على أنه اذا كان التمرد أو النقد الاجتماعى هو قوام القصة الاجتمـاعية فثمة اهتمام يواكب التمرد أو النقد هو التثقيف الشعبى أو التوعية ويتجلى ذلك على الأخص عند ليفكوباريديس فى كتـابه « آفاق » عام ١٩٣٠ .

على أن ثمة كتابا آخرين جديرين بالاعتبار أيضا . وقد ساهموا بكتاباتهم فى مجال « القصة السيكلوجية أو النفسية » . ويجـدو

أن نشير في هذا المقام الى أن استقصاء المظاهر المختلفة للحـــركة النفسية في القصة السيكلوجية انما ينبع عن بداية تخالف تلك التي تبدأ منها القصة الاجتماعية . فاذا كانت هذه الأخيرة تقـوم على فكرة خضوع الانسان للعوامل الاجتماعية ، وتوقف تجـديد طاقاته على تجديد طاقات المجتمع ، ممايحقق في القصص الاجتماعية نوعا من الوحدة ، فانه يصعب أن يجمع بين كتاب القصة النفسية تصور مبسط ومتماسك للانسان ، بل هم ينزعون الى اختبار تعقد المتناقضات وتشابك الصراعات ، سواء بين الفرد والوسط المحيط به ، أو في أعماق الفرد ذاته ، وهو ما ينبع عنه تنوع كبير في المعالجة القصصية .

واحدى النزعات في هذا المقام تتمثل في دراسة الانسان الذي لايستطيع أن يتأقلم بالأوضاع الجديدة التي يمليها الوسط الاجتماعي وتبدو هذه النزعة بجلاء لدى نيقوس نيقولائيدس بعنوان «المشاكس» عام ١٩٢٢ وفي « قصة سجين » لدوكاس عام ١٩٢٩ وفي « الجذور الأولى » عام ١٩٣٦ لتاتيانا ستافرو . وهي تدرس هنا الصعاب التي يلاقيها اللاجئون اليونانيون النازحون من أسيا الصغرى للتأقلم بالوسط اليوناني الذين نقلوا اليه فجأة .

وقد ولدت الأديبة الكبيرة تاتيانا استافروفي فافيوخوري ، وهي احدى قرى البوسفور (الأناضول) وكان أبوها من رجال التعليم وعاشـــت في أحضـــان اسرة مثقفة . وسرعان ما اقبلت على اللغة العامية بشغف لم تلقاه منها اللغة الفصحي . وقد جاءت تاتيانا ستافرو الى اليونان في ديسمبر ١٩٢٤ ضمن اللاجئين ، هي وزوجهـــا . وبعد عشر سنوات اعتزمت أن تكتب عن معاناة الذين اصابتهم ويلات الحروب دون أن يحاربوا ، مستمدة مادة كتاباتها من حياة اللاجئين التي خبرتها جيدا . وصدر كتابها هذا بعنوان « أولئك الذين بقوا » وسرعان ما لفتت روايتها الأنظار ، وتبوأت المكانة اللائقة بها في

الحياة الأدبية اليونانية . وعندما نشرت كتابها « الجذور الأولى » عام ١٩٣٦ سجلت اسمها فى عداد كبار كتاب القصة اليونانية الحديثة . فصفحات هذا الكتاب قد توافرت لها طلاوة الملاحظة ، وغزارة المادة ومعمارية البناء ، ودقة الصنعة . ليس عندها أبطال وبطلات ، بل هناك فحسب بشر تربط بينهم اضطرابات الحياة وقلاقلها . وفى عام ١٩٤٧ أصدرت كتابها « الينابيع الخفية » وهى صفحات من سيكلوجية الحب ، كتبت بخفر وحس نسائى مرهف ، قصص ليريكية قصيرة تخلط بين الحدث والنغمة الشعرية ،ويفوح منها شذى عطرى ومقدرة فنية كاملة .

ويعود ايلياس فينيزيس فى عام ١٩٣٩ فيعرض فى روايته « سكينة » مأساة الاغتراب ذاتها التى رأيناها فى « الجذور الأولى » كما نجدها عند ترزاكيس فى « الأغلال » عام ١٩٣٣ وفى دراسة بريفيلاكيس التفصيلية عن «قصة مدينة» عام ١٩٣٨ .

وتتحول الكتابة القصصية من « السيكلوجية الجماعية » الى «السيكولوجية الفردية» عندما يكرس العمل لدراسة شخص سواء قصد لذاته أو عرض كرمز ،كما فى«الكولونيل ليابكين»لكاراجاتزى عام ١٩٣٣ .

ويقترب من ذلك اتجاه أولئك الكتاب الذين يبرزون دورالخيال عند الشخصية التى تهرب ـ بارادتها الى حد ما ـ من الواقع ، كما فى «الحب ناسج الأحلام » لناريس عام ١٩٢٦ كما يمكن أن تقف القصة السيكلوجية عند الصراعات العاطفية كما فى « النار ذات الشعلتين » التى كتبها ليدوراكيس أو عند الانحرافات السلوكية، مثل التقصى بلا أمل عن مثل أعلى ، أو الاخفاق فى اشباع العاطفة كما فى « غابة الليمون » عام ١٩٣١ لكوزماس بوليتيس ، وقد تصل العاطفة المستبدة الى هوى جامح يحيل الفرد الى ضحية لغرائزه

كما فى « الجسد » لكانيلليس عام ١٩٣١ ، وقد تقف القصة عند الأفكار المسلطة كما فى « نظرة الثعبان » لفويوكلاكى عام ١٩٣١ .

وقد يعكف كاتب القصة النفسية على تحليل ذاته واستكشاف مجاهلها كما فعل كسيفلوداس فى « السيمفونية الداخلية » عام ١٩٣٢ .

كما عمد البعض الى دراسة أوضاع الحياة الحديثة وانعكاساتها على النفسية الفردية بحملها على الاستسلام لها ، أو التأقلم بها . وقد يمضى البطل رغم كل شىء فى تخبطه بالأوضاع الخارجية . وهذا مانجده فى روايتى ثيوتوكاس « آرغو » عام ١٩٣٣ « والشيطان » عام ١٩٣٨ ، وعند بيتساليس فى « مفرق الطريق » عام ١٩٣٤ وعند تيرساكيس فى « المدينة الضارية » وهنا نجد الأقوياء يواجهون الضعفاء ويسحقونهم .

ولا شك أن تعدد الحالات والمخططات فى القصة السيكلوجية يترتب عليه تنويعات عدة فى التركيب التكنيكى للعمل . ولكن الملاحظ بصفة عامة على القصة السيكلوجية أن المغامرة ليست عنصرا خارجيا بل هى ترافق حركة الروح ، كما أن الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال تتلاشى من العمل الأدبى . ويصبح الوسط الخارجى عرضيا ، والفرد عالما زاخرا بالفانتازيا وانطباعات التجارب الشخصية .

وتمضى القصة السيكلوجية عند تيرساكيس فيقدم « الحب والموت » عام ١٩٤٢ وكوزماس بوليتيس فيقدم « ثلاث نساء » عام ١٩٤٣ . وينمى بيتروس خاريس الجوانب النفسية فى مجموعته القصصية « عالم بعيد » عام ١٩٤٤ . ومن قبله تاتيانا ستافرو فى « مضى الصيف » واستراتيس ميريفيليس فى « فاسيلى الألبانى » عام ١٩٤٣ كما يعكف ايلياس فينيزيس على استرجاع ذكرياته الماضية فى « أرض اليونان » عام ١٩٤٣ وفى « رياح » عام ١٩٤٤ .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة أن النزعة الاجتماعية قد تراجعت في القصة اليونانية الحديثة أمام النزعة السيكلوجية . واذا كانت القصة الاجتماعية مرتبطة بالتعاسة الانسـانية ظلت عند يانيس مانجليس صاحب « خطوات في الطين » عام ١٩٤٩ ، فقد تنوعت النزعة السيكلوجية في أعمال الكتاب . وتجلت على الأخص عند ذوكسناس في « بعد منتصف الليل » وتاتيانا ستافرو في « ينابيع خفية » وعند ديليوس في « موسيقى الغرفة » عام ١٩٤٧ . ونجد عرضا لأحلام الطفولة في « صفاء النجوم » عام ١٩٤٥ لباناجوتوبولوس ولعاطفة الأمومة عند السيدة بوكوفالا في « الفداء » عام ١٩٤٧ ويربط لونديميس السيكلوجية بالفلسفة في « طابت ليلتك ، أيتها الحياة » عام ١٩٤٦ . وهو ما نجده أيضا عند كاراجاتسيس في « النوم الطويل » وعند نيقوس كازندزاكي في « اليكسي زوربا » وهي رواية كريتية ، تضع وجها لوجه شابا يقضي ساعاته في قراءة الكتب ورجلا حنكته تجارب الحياة . وتحملنا الذكريات بعيدا الى الماضي في « الأحياء القديمة » لديمتريادس عام ١٩٤٧ . أما نيقولائيدس فقد مزج المعالجة السيكلوجية بالوصف التفصيلي للتقاليد والمشاهد المحلية في « أبعد من الخير والشر » عامي ٤٠ و ١٩٤٣ و « المسامير الثلاثة » عام ١٩٤٨ .

وهناك قصص تقوم على وصف المناظر الطبيعية » كما فعل ليدامس عام ١٩٤٦ في « أجازة في ميكانو » وكثيرا مالا يقصد وصف الطبيعة لذاته ، أو يطعم بتأملات فلسفية أو خلجات نفسية وتقترب قصص وصف الطبيعة من كتب الرحلات وهي ضرب من « النثر القصصي » تفوق فيه كازندزاكيس وأورانيس وفينيزيس.

كما أن ثمة تيارا جديدا بدأ يغزو القصة اليونانية الحديثة منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى نجده على الأخص لدى جورج نيوتوكاس وذراسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس. وهو تيار

الكتابات اللامحلية عن أحداث تدور في بقاع أخرى من العالم غير اليونان ، أو بين شخوص من جنسيات أخرى غير اليونانية . وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الاطار الخارجي للموضوع، وعلى نقل المعالجة السيكلوجية الى مستويات أخرى .

ولقد وجدت الحرب العالمية الثانية اليونان وقد اكتمل نضجها المعنوى . ولم تعوق الأوضاع المؤلمة التى فرضتها الأحداث سير النشاط الفنى والأدبى الذى كان بالنسبة للشعب اليونانى بمثابة درع للدفاع وسلاح للهجوم . وقد أهاب الكتاب اليونانيون بالأحرار والمثقفين فى العالم كله أن يهبوا لنصرة اليونان فى قضيتها .وكانت الحرب فرصة تاريخية ليؤكد الأدب اليونانى ارتباطه بالفكر العالمى وهو التيار الذى ظهر فى الكتابات اليونانية منذ عام ١٩٢٠ .

وتحت كابوس الاحتلال نشأت حركة أدبية سرية امكنها أن تطبع وتوزع كتبها فى الخفاء ، مثل مجموعة ليليكاناكو القصصية بعنوان «جحيم الأطفال» واشترك كثير من الكتاب المناضلين فى الصحافة السرية مثل ثيوتوكاس الذى كان يكتب فى الجريدة السرية «الحرية» كما أصدر لفيف من الأدباء الأحرار مجلة سرية بعنوان « الرواد الجدد » أما المجلات التى رخصت لها السلطات بمواصلة الصدور مثل مجلة « نيا استيا » فلم تكف بدورها عن التغنى بالقيم اليونانية العريقة .

ومن الأحداث الأدبية البارزة فى ظل الاحتلال النازى جنازة الشاعر اليونانى الكبير «كوستيس بالاماس» فى ٢٨ فبراير ١٩٤٠ فقد حول الأدباء والفنانون موكب الجنازة الى مظاهرة وطنية ضخمة مهيبة .

ولقد ولدت الحرب العالمية الثانية بدورها أعمالا قصصية كثيرة من « أدب المعركة » مفعمة بروح قومية أبية ، صورت على الأخص بطولات المقاومة الشعبية ، ومعاناة الشعب من صنوف العذاب

الذى وقع عليه . ومن هذه الكتابات « بعيداً عن أنوار الحيـــاة » لأرغيريس و « الحـرية أو الموت » لافيروف و « فى جحيم أثينـا » و«الأرواح الأبية» للسيدة بيتراكى عام ١٩٤٥ .. انتاج غزير مفعم بحب الوطن وتمجيد بطولات أبنائه .

على أن هذا النوع من الكتابات مضى بتناقص كلما ابتعد كابوس الحرب من الأذهان ولكن ذكريات الحرب ظلت تخلق لدى القصاصين والروائيين العديد من الصفحات مثل « الدم الانسانى » لذوكساس و « ساعة الحرب » لفينيريس و « من أجل العدالة » لماريا روسيا عام ١٩٤٦ و « رجال مسلحون » للوكاس اكريتاس عام ١٩٤٧ .

وعادت القصة اليونانية الحديثة تنمـــو وتزدهر فى مختلف ضروبها ومناحيها . وانطلق الأدب اليونانى بصفة عامة الى المستوى العالمى بخطى حثيثة، فترجمت الأعمال العديدة من اليونانية الى اللغات الأجنبية . ونال كازندزاكيس وسفيريس وغيرهما كثيرا من الجوائز العالمية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التى تلت الحرب وتنوعت ،فانه يجمع بينها محاولة ربط القومى أو المحلى بالعالمى ، واعلاء النظـرة الديناميكية الى الوجود الانسانى على النظرة الاستاتيكية . وأخيرا نجد الكتاب اليونانيين الجدد ، سواء واجهوا الفــرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون فى أعمالهم الى مشكلات تتعدى الوسط اليونانى ونقتضى حلولهـــا التقصى عن مدلول أشمــل للانسان ، وبذلك يساهم الأدب اليونانى الحديث فى اثراء التجـربة الانســانية العـالمية . (١)

---

(١) استندنا فيما تقـــدم على الأخص الى كتـــابات اريستى كامبانيس وابوستولوس زاخيتى واندريه ميرامبيل عن الأدب اليونانى الحديث .

القصة اليونانية الحديثة فى مصر :

ترجع أول محاولة قصصية فى الأدب اليونانى بمصر الى عام ١٨٩٩ . وكان صاحبها أحد رجـــال التعليم المعروفين فى الاسكندرية وهو « يوانى جيكا » . فقد نشر فى تلك الســـنة مجوعته القصصية « فى خمسة فصول » وتنطوى قصص هذه المجموعة على جهد لتحليل نفسيات أبطالها ، وجنـوح الى اللغـة العامية ، وهو ما كان فى حينه خطوة جريئة ، كما تنطـوى على تنديد بالاحتلال البريطانى البائد . واذا كانت قصص جيكا تلك ما عادت تقرأ الآن ، ألا أن كتابه «خمسون عاما فى مهنة التعليم» الصادر عام ١٩٥٠ ما زال يثير الاهتمـــام بما احتواه من ذكريات وانطباعات .

ويستحق « كوستا ساجاراداس » منا وقفة طويلة ، فقد اقام هذا الرجل بأسـيوط وكان أول من لفت انظار قرائه اليونانيين الى حياة أهل ريفنا بروايته « نبية » التى كتبها عام ١٩٢٤ ثم تبعها فى العام التالى بمجموعته القصصية « حكايات » المســتوحاة بدورها من حياة فلاحينا . ولقـد كان ساجاراداس رائد الـكتاب اليونانيين الذين وجهوا اهتمامهم الى وصف مشاهد من حياتنا الشعبية . وقد رجع ساجاراداس ايضا الى ماضى بلادنا فكتب عام ١٩٥١ «بتاح حتب » ترجم فيها جانبا من حيـاة الفـراعنة وأدبهم .

وقد عرب الأسـتاذ عبد السميع المصرى رواية ساجاراداس « نبية » بعنوان « عذراء أسيوط » واشـار أديبنـا يحيى حقى فى كتابه «خطوات فى النقد » الى هذه الرواية متنبها الى دلالتها فيقول عنها « .. هزت روحى هزا عنيفا ، حتى غلبنى التأثر . وأذاقتني كأسا مترعة من سعادة لا حد لها .. لأن كاتبها اليونانى

يخالطنا عن قرب ، ويعاشرنا منذ أمد بعيد ٠٠ وتدل مقدمة المترجم على أن المؤلف قد كرس لمصرنا العزيزة وطنه الثانى أو لعله أصبح وطنه الأول ، عصارة ذهنه وفنه ، وذوب روحه ، ووقف عليها جل مؤلفاته الكثيرة ٠٠ ولم تقف نظرته عند سطح أرضنا ، بل نفذت الى جذورنا واعماقنا .. أننى لا ابالغ اذا قلت لك أن كوستى ساجاراداس قد قدم لنا قصة هى فى الذروة من الثقافة الذهنية والروحية . ولكن الثقافة وحدها لا تنفع عند التحدث عن الوطن الا اذا صحبها حب واعزاز واحساس صادق وشعور يقظ ، وقد وجدت كل هذا عند صاحبنا بما لا يدع زيادة لمستزيد ، بل اخطو خطوة أخرى وأقول ان الثقافة والحب اذا اجتمعا لا ينفعان ايضا الا اذا صحبهما شيء ثالث لهخطرهوقيمته وهوالتواضعوالخشوع. وكوستى مثل رائع لتواضع الفنان ، وخشوعه أمام الطبيعة والنبات والحيوان ، وعواطف الانسان وأحكام القدر ، وأشهد لك أن أحدا لم يصف مصر وأهلها وطبيعتها كما وصفها كوستى بفن وحب واعزازوتواضع وخشوع ، كما نفذ الى أسرار النفس الانسانية وبسطها فى كلام سهل ناصع نصوع الفن الأغريقى .. « خطوات فى النقد ــ ص ١٨٠ وما بعدها » .

وقد سارت القصاصة « كاليوبى ناكوبولو » التى عاشت سنين طويلة فى الريف المصرى الى جوار زوجها الذى اشتغل بالزراعة ــ سارت فى روايتها « شجرة على » الصادرة عام ١٩٥٧ على ذات النهج الذى اخطته ساجاراداس فسردت فى روايتها تلك حياة أسرة ريفية مركزة اهتمامها على التقاليد والعادات فى ريفنا وقد شيدت محور الرواية على الرغبة المتأصلة فى أن تنجب المرأة لزوجها ولدا ذكرا .. ومن خلال هذه العادة تتابع ناكوبولو بعين القصاصة المدققة حياة ريفنا كله ، ما يلبس وما يؤكل ، مواسمه وأعياده . وأفراحه واتراحه .. عواطفه ومشكلاته .

ولقد أوحت تربتنا وأرضنا للقصاص « ن . بوسولاس » بصفحات ضافية فى كتابه « الصيف » الصادر عام ١٩٦١ . كما يرجع الفضل الى فيليبو فى محاولة الربط بين اليونانيين المهاجرين الى مصر والبيئة الريفية التى عاشوا فيها ، وذلك فى كتابه « تجار القطن » الصادر عام ١٩٤٥ ..

أما « فاجيليس غراتسسيا » فبعد أن كتب قصته الخيالية « بيت الاشباح » عام ١٩٥٨ ألف قصته «اصوات فى الصحراء» عام ١٩٦٠ .

وقد عرفت الحياة الأدبية للجالية اليونانية فى مصر أديبات جديرات بالاشارة الى انتاجهن القصصى . ففضلا عن القصاصة كاليوبى ناكوبولو التى نزعت ــ كما رأينا ــ الى تصوير البيئة الريفية بكثير من الشغف والتعاطف نجد القصاصة « هيلينى فويسكو » التى ضمت قصصها فى مجموعة صدرت عام ١٩٤٦ ، ثم نجد «لوكيا مارفا» التى كتبت عددا من أكمل القصص اليونانية وقدمت لقرائها مجموعتيها القصصيتين « رحلة مع زميلى الانسان » عام ١٩٥٣ و « بلا رفيق » عام ١٩٥٦ ، وأن كان الكثير من انتاجها ظل متناثرا على صفحات المجلات دون أن يجمع بين دفتى كتاب . أما « دوللى دالكا » فرغم أنها قد نشرت عدة قصص موفقة فى المجلات فاننا لا نجد لها أية مجموعة جمعت فيها تلك القصص .

وفى مجال القصة اليونانية فى مصر نلتقى أيضا «ماريا روسيا» التى نقدم ترجمة لاحدى قصصها فى هذه المجموعة .. وتنزع هذه الكاتبة الى الاهتمام بحرارة الروابط الاجتماعية ويدين لها الأدب اليونانى فى مصر بكتابها « من أجل العدالة فى الشرق الأوسط » عام ١٩٤٦ وقد استوحته من انطباعاتها عن الحرب العالمية الثانية ، وبكتابها « قبرص » الذى حاولت فيه عام ١٩٥٦

أن تعـرض الروح الحقة لوطنها من خلال مزج رائع بين الواقع والخيال .

كما كتبت « أثينا بابا » عام ١٩٦١ قصـة حياة الموسـيقى « شومان » مفصحة عن اهتمامات انسانية وعالمية .

وفى مقـدمة القاصـين اليونانيين فى مصر الذين تعـددت اهتماماتهم وكتاباتهم الشـاعر الناقد القصـاص « غلافكوس اليثيرسيس » الذى نظم الكثير من دواوين الشعر وألف كتـابا عن تاريخ الأدب اليونانى ، أشار فيه الى كثير من كتاب اليونانية الذين عاشوا فى مصر أمثال « كافافيس » وقد ألف اليثرسيس أيضا قصصا قصيرة جمعها فى مجموعته « العناكب » الصادرة عام ١٩٣٦ .

كما نجد « ستراتيس سيركا » الذى تخلى عن نظم الشـعر ليكتب القصة ، وقد تجلت حنكته القصصية فى مجموعاته « أناس غريبو الأطوار » عام ١٩٤٤ و « ابريل أشد صعوبة » عام ١٩٤٧ و « نومة الحصاد » عام ١٩٥٤ . وقد طبعت مجموعاته هذه ونشرت فى الاسكندرية . وقد عرف سيركا أيضا بدراساته النقدية الجادة ، وله دراسة عن رائد القصة اليونانية الحديثـة « ديموستينيسى فوتيراس» عام ١٩٤٨ ودراسة أخرى عن القصاص القبرصى الكبير « نيقوس نيقولائيدس » عام ١٩٥٠ ودراسـة أخرى ضافيـة عن الشاعر « كافافيس وعصره » عام ١٩٥٨ .

ولا يفوتنا أن نشير فى هذا المقام الى أديب آخر تنوعت كتاباته وضرب بسهم وافر فى شتى المجالات الأدبية هو «فريتميتساكيس» قارىءالفلسفة الذى كتب القصةالمتطبعة بروحه القلقةالمنقبة المحملة بقسط وافر من المعرفة الانسانية .

ويجدر أن نشـير فى حقل القصة اليـونانية فى مصر الى «كيتروبولو» الذى بكر باصـدار عمله القصصى عام ١٩٢٥ والى

« يانجوس بيريدس » الذى كشف عن قدرته على تحليل النفسيات فى روايته « الغريب » الصادرة عام ١٩٢٧ ، والى « سوكرات ستاماتيو » الذى قد لنا عام ١٩٥٤ « الاعصاب المكدودة » ، والى « سوتيرى بورذانو » والى « ايليا خادزيليا » صاحب المجموعة القصصية « ساعات على النيل » الصادرة عام ١٩٥٣ ، والى باولوناثانيل الذى أصدر عام ١٩٥٥ مجموعته « القلق » .

وفى عام ١٩٣٥ صدرت فى الاسكندرية مجموعة قصصية بعنوان « خطوات على الاسفلت » لقصاص ذى مكانة مرموقة فى أدب القصة اليونانية بمصر هو « أنطوانى اينونى » الذى أصدر بعد ذلك مجموعة قصصية ثانية بعنوان « لحظات كبيرة لاناس صغار » عام ١٩٣٨ وقد أعيد طبعها عام ١٩٤٤ ثم أصدرمجموعة قصصية ثالثة بعنوان « الرجل الذى يضحك فى أوقات غير مناسبة » عام ١٩٤٣ . ثم مجموعة قصصية رابعة بعنوان «مقابلة مع ذاتى الأخرى » عام ١٩٥٤ . كما أصدر عام ١٩٤٦ كتابه «أحلام تحت رقعة من السماء » تضمن قصة ورواية قصيرة . وأصدر أيضا روايتين طويلتين هما « المحكوم عليهم » عام ١٩٤٣ وقد أعيد طبعها عام ١٩٤٤ و « أولئك الذين لم يحاربوا » عام ١٩٤٥ . وأسلوب اينونى أسلوب مهذبرائق لا يعمد الى الايقاعات العالية ولا الى افتعال المفاجآت الصاخبة . وهو يتتبع فى قصصهاناسا عاديين فى ساعات المحن والحاجة والضعف ، ويعرض لحظات كل يوم بعمق ويملا قلب قارئه بالشجن دون التردى بفنه فى الميلودراما الخطابية . ومن خلال قصصه نلمح الكثير من أحياء الاسكندرية وشوارعها ومحالها .

على أن أكبر كتاب القصة والرواية اليونانية فى مصر هو بلا منازع القبرصى « نيقوس نيقولائيدس » واذا كان نيقولائيدس قد توفى عام ١٩٥٦ الا أن قصة مثل « عظام الميت » أو « ابعد من

الخير والشر » لهى عمل أدبى نادر المثال . كما أن روايته «المسامير الثلاثة» التى صدرت فى القاهرة عام ١٩٤٨ جديرة بكل تقدير. والحق يقال ان أدب نيقولائيدس لم يحظ بمكانته اللائقة بعد رغم مايحفل به من انسانية وشرف واخلاص .

ومن الجدير أن نشير الى واحد من أشد قصاصى اليونان فى مصر جرأة وهو « ينى يامفيليس » الذى جمع قصصه عام ١٩٦٠ فى كتاب بعنوان « الميناء » فقد طبع هذا القصاص قصصه بالحروف اللاتينية ، مما يعتبر عملا طريفا وجديدا فى حد ذاته. وهو يقول فى مقدمة مجموعته انه انما عمد الى هذه الكتابة لأنه فنان تجريبى قبل كل شيء، وان كان قليل الايمان بأن طريقته هذه ستحظى بالرضاء العام أو ستلقى التأييد السريع . ولكن يامفيليس يعد بطريقته هذه فى طليعة الكتاب اليونانيين الذين سعوا الى ربط لغة بلاده باللغات الأوروبية التى تكتب بالحروف اللاتينية (١)

القصص المترجمة فى هذه المجموعة :

ولقد اخترنا القصص التى تضمنتها هذه المجموعة من مصادر مختلفة ، فبعض هذه القصص استقيناه من مجموعات قصصية ، وبعضها استخرجناه من مجلات مختلفة.

فقصة ايلياس فينيزيس « ولاية فرجينيا » ترجمناها من مجموعته القصصية « المهزمون » طبعة اثينا فى مارس ١٩٥٤ . كما ترجمنا قصته « طائر مقتول » من مجموعته القصصية «ساعة الحرب » طبعة اثينا فى سبتمبر ١٩٤٦ . أما قصته « احلام

---

(١) استندنا فى هذا المقام الى كتاب الناقد المؤرخ السكندرى « مانولى يالوراكى » بعنوان تاريخ الأدب اليونانى فى مصر طبعة ١٩٦٢ .

الغد » فقد اخترناها من مجموعته القصصية بعنوان « خمس عشرة قصة من قصص المقاومة » اشترك فيها فينيزيس مع أربعة عشر قصاصا آخرين وصدرت هذه المجموعة بأثينا فى ديسمبر ١٩٤٥.

أما «صداقة» للكاتبة ليليكاناكو فقد نشرت بالعدد الصادر فى ١٠ سبتمبر ١٩٦٢ من مجلة « اســتيا » أو « الوطن الجديد » كبرى المجلات الأدبية التى تطلع فى أثينا وأقدمها عهدا ، وذلك فى سلسلة من القصص المختارة لكبار كتاب القصة اليونانية الحديثة. وعندما سئلت المؤلفة ليليكاناكو عن سبب تفضيلها لهذه القصــة كتبت الى مجلة «نيا استيا » تقول: أحب كتبى الى نفسى مجموعتى القصصية « جحيم الأطفال » فقد ضمنتها قصصا واقعية جمعتها عندما كانت السيدة اريستيا بابا ذاتو تعمــل رئيسة للممرضـــات بمستشفى الأطفال بحى ريزاريو . وكان ذلك أثناء الاحتــــلال النازى لأثينا . وقد ضربت تلك السيدة صورا عديدة من البطولة وكتبت بحياتها ملحمة حافلة بالشهامة والفداء . ولقد كانت تلك السيدة حافزا قويا لى فى أن التحق بدورى بهذه المستشفى الذى كان يستقبل أفواج الأولاد الذين يموتون من الجوع . ومن أفواههم ذاتها استمعت الى قصصهم . عرفت هؤلاء الأولاد عن كثب وتألمت من أجلهم أكثر مما تألمت لأى شىء فى الوجود . لقد كانوا أكثـــر الأولاد استحقاقا للحب وأكثرهم بطولة . كانوا أفضل من أنجب وطننا على الاطلاق . اذكر منهم ولدا فى الثانية عشرة من عمره تقريبا ضمر عوده ونفرت عظامه بشكل مخيف ، جذبنى من سترتى ذات يوم عندما كنت أمر بجواره وقال لى :

ــ سيدتى الممرضة علمت أنك تؤلفين كتبا . أكتبى عنا اذن حتى لايطوينا النسيان تماما عندما نموت !

كان يتكلم عن الموت بكل بساطة ، كما لو كان من الطبيعى جدا ومن المألوف جدا أن يموت الأولاد الصغار . كان المسكين يرى الأسرة

من حوله تخلى يوما بعد يوم . كان مئات الأطفال يموتون من تأثير الجوع ومضاعفاته . ولما كانت الأسرة غير كافية فقد كنا نضع خمسة وستة أولاد يحتضرون فى سرير واحد . وأذكر ذات يوم جاء لزيارة المستشفى مندوب من قبل الكنيسة. ولما واجه المنظر ، ورأى الأولاد النحيلين بعيونهم الواسعة الجاحظة لم يستطع الاحتمال . وساندناه حتى لايقع على الارض مغشيا عليه . وقد حدث المثل مع سفير السويد !

لقد كتبت « جحيم الأطفال » بزفراتى ونبضات قلبى فى ذلك الوقت كنت أبصق دما بدورى . كانت معدتى تؤلمنى من شدة الجوع . لكن سيبدو مضحكا أن أقول اننى كنت سعيدة باننى أعانى الألم بدورى ، لأننى لو لم أكن أعانى الألم لخجلت من أن أنظر الى الأولاد .

ومن بين كل قصصى تلك من الصعب أن أفضل احداها . لكننى على أى حال أخص قصتى « صداقة » بحب أكبر ، لأنها تسجل حب الحيوان أيضا ، ولأننى كنت فعلا تلك الشخصية التى نقلت ادزامى على عربة اليد الى المستشفى فى رازاريو . ولقد كنت آمل أن يشيد فى حديقة من الحدائق العامة نصب تذكارى أو يقام فى ميدأن من الميادين تمثال لطفل من أولئك الذين ماتوا فى ذلك الشتاء الملعون ؛ شتاء عام ١٩٤١ ، حتى لايطوى النسيان الأهوال التى عانوها ، وحتى لاتذهب التضحيات التى تحملتها كواهلهم الصغيرة هباء .

أما « معجزة لقاء الانسان للانسان » فهى من أحب قصص تاتيانا ستافرو . وقد نشرتها بأحدث مجموعاتها القصصية « الوجه الآخر للانسان » وسبب تفضيل الكاتبة لقصتها هذه على حد قولها هو أن القصة قد تضمنت شيئا حقيقيا صادقا تريد أن تعبر عنه ،

وتصر عليه دواما ، الا وهو أن ظهور الانسان ، الالتقاء به ؛ معرفته عن كثب ، قادر على أن يغير وجهة النظر الى الأمور . ان اشعاعات الوجه الانساني قادرة على أن تغير السيء الى حسن ، والشر الى خـــير .

هذه القصة هي الوحيدة في مجموعة تاتياناستافرو التي وان كانت أحداثها تدور أثناء الاحتلال النازى لليـــونان الا أن نبضها الانسانى يتعدى ــ على حد قولها ــ تلك الفترة ، وينتمى الى كل الأزمان .

وتمضى الكاتبة فتقول عن قصتها ان الحياة على الدوام أعمق بكثير مما يخيل لنا . ان اللحظات العصيبة هى الفرص الوحيدة لاكتشاف أعماقنا الحقة ، لكن الغريب فى الأمر أن هذا الاكتشاف مرتبط بتفاصيل جزئية قد تخفى على النظرة السريعة العابرة .

وقد أعادت مجلة « نيا استيا » نشر قصة تاتياناستافرو بعددها الصادر فى ١٥ يناير ١٩٦٢ . وقـــد ترجمناها نقلا عن هـــذه المجلة .

أما قصة نيقوس نيقولائيدس بعنوان « الكلب الغريب » فقــد ترجمناها من مجموعته القصصية الصادرة عام ١٩٢١ فى قبرص .. واستقينا قصته الثانية « الخادمين » من عدد خاص من مجلة « نيا استيا » صدر فى ديسمبر ١٩٥٤ عن « قبرص » .

ولما كانت ماريا روســيا أدبية قبرصية بدورها فقد جــاءت قصتها « جارتان » ضمن القصص التى نشرتها مجلة « نيا استيا » فى عددها الخاص عن قبرص ، والذى أشرنا اليه . وقد ترجمنا هذه القصة نقلا عن المجلة المذكورة .

وقد التقينا بقصة « أغاريد » لجريجوريس كسينوبولوس فى عدد من مجلة « ينيكا » أى « المرأة » وكان طبيعيا أن تتحمس هذه

المجلة لنشر دراسة عن كسينوبولوس ونموذج من أدبه ، ذلك لما عرف به هذا الكاتب فى تاريخ الأدب اليونانى الحديث من عطفه على قضية المرأة . وقد وصفته تلك المجلة بحق بأنه « المتغلغل الى أعماق المرأة والمدافع عن الروح النسائية »

أما القصص الباقية التى تضمنتها هذه المجموعة فقد ترجمناها بدورها عن مجلة « نيا استيا » . وقد نشرت قصة « الكسلان » ليانيس مانجليس بالعدد الصادر فى ١٥ أغسطس ١٩٦٢ من هذه المجلة . ويقول مؤلف هذه القصة عنها انه طالما أحب أولئك الذين يعطون الحياة كل شيء دون أن يأخذوا منها شيئا . وقد ضمن قصته كتابه بعنوان « الملعونون أهل البحر » . وقد كان بطل القصة « انطوناكى خانوس » من خلق خياله ، لكنه أحبه كما لو كان شخصا له وجود حقيقى توطدت بينهما أواصر صداقة وثيقة. فقد أوصله ماكان يجيش فى قلب انطوناكى من ألم ، ومرارة ، واحساس بالعجز وشعور عميق بالدين ، واستعداده لسداده ولو كلفه حياته ـ أوصله كلما تذكره الى حد البكاء .

وتعتبر قصة « اليكسى سائق العربة » التى كتبها ذيونيسوس كوكينوس عام ١٩٣٣ من أحب قصصه اليه ، رغم أنه كتب مايربو على مائتين وخمسين قصة منشورة على صفحات الجرائد والمجلات والكتب . وقد ترجمت هذه القصة الى الفرنسية والروسية والرومانية . وقد أعادت مجلة « نيا استيا » نشرها فى عددها الصادر فى ١٥ يوليو ١٩٦١ . وقد ترجمناها نقلا عن هذه المجلة .

أما بيتروس خاريس فقد تولى رياسة تحرير مجلة « نيااستيا » بعد وفاة مؤسسها ورئيس تحريرها السابق جريجوريس كسينوبولوس . وقد ترجمنا له قصة «العودة الى الميدان الصغير» نقلا عن العدد الصادر فى ١٥ أكتوبر ١٩٥٦ .

وقد كانت هذه المجلة قد خصصت العـــدد الصادر فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٨ لواحـــد من رواد القصة اليـــونانية الحديثة هو ذيموستينيس فوتيراس ونشرت المجلة فى عددها المذكور نماذج من انتاجه القصصى اخترنا منها « الحقد فى قلب كاميناس » .

ونحن اذ نقدم هذه المجموعة من القصص اليونانية الحـديثة نأمل أن تحقق ما قصد بترجمتها من امتاع القارىء وتحبيبه فىأدب شعب صديق .

د . نعيم عطية

القاهرة فى ٢٧ فبراير ١٩٦٨

إهـــداء

الى صديقى
الصـحفى الأديب ث .
نيقولوبولوس
أهدى
هذه الترجمات
تحية الى اليونانى الذى أحب
مصر
واعترافا بما قدمه لى من
توجيه اخوى فى تذوق
الأدب اليونانى الحديث

نعيم عطيه

ذيموستينيس ڤوتيراس

الحقد في قلب كاميناس

عندما أقبل الليل ، وأوقدت خادمة الكنيسة قناديلها ، خرج كاميناس الى سطح القصر الريفى القديم ، ونظر الى بيت باريا.

كانت أنوار البيت تتلألأ ، ومن خلف الستائر المفتوحة انعكست الأضواء خارجا ، فبدت الأشجار الداكنة الساكنة ، والأرائك الخشبية ، وحوض المياه .

قال بصوت خفيض : « كادوا يفسدون على خططى » ، اختبأ فى بطن القصر القديم ، هكذا كان يسمى أقبيته ، ولم يستطع الحارسان اللذان طارداه أن يعثرا عليه ! آه ! القصر القديم يحميه، كانت أشباحه أصدقاء له ، ولما نزل الحارسان يبحثان عنه ، سارعت باخفائه ، ملقية عليه رداءها السحرى . فلم يرياه !جرت الحشرات من حوله والى جواره ، لكنها كانت كلها اصدقاءه ! هى بدورها ربيبة الظلام ، عدوة النهار والنور الوضاح ! مثله . تريد الليل الأسود الستار ، الذى يحتوى فى أعماقه غوامض وغوامض ، ويحتضن تلك الأشباح التى تخرج بلا خوف فى ظلمته عائدة الى ديارها المهدمة ، الى قصورها التى صارت خرائب واطلالا !

سكنت الريح التى كانت تعصف من قبل بالقصر العتيق وتزلزل جنباته ، وتبعث الأنين والتنهدات بين أرجائه . كانت ليلة هادئة، لكن هدوءها كان يضطرم بجلبة لا يعرف كنهها ، أشبه بهمهمات أشباح عاشقة ، أو خرير يتبوع خفى ، أو أغنية يبعث بهاالصمت الى النجوم !

ــ ما بالهم يفعلون ؟ لابد أنهم يرقصون ! الثـراء بين أيديهم حرام !

كز على أسنانه .

سيرون الآن ماذا بمقدور فقير تعس أن يفعل ! لقد ألبوا عليه الخفراء ورجال الشرطة والقضاة ، لكن هل سيكون بامكانهم أن يوقفوا الانتقام ؟

وكان الليل كاتم الأسرار ينظر اليه من عليائه بعيونه التى لا تحصى .

... سوف يتسلق بعد ذلك السور الى النافذة من تلك الناحية التى تنمو فيها اللبلابة اللفاء.

ومثلت فى مخيلته اللبلابة المتشبثة بالحائط ، وتركزت رؤيته على ذلك الموضع الذى تفرقت عنده أغصانها مثل علم مجزوز ...

تسلق أحجار الحائط البارزة .. كان يجب أن يروه مثل شيطان يطلع عليهم من هناك . فاضت الأضواء من المصابيح والشموع والثريات ، وأغرقت المكان بأنوارها . كانت النساء يدرن ويرقصن بين أحضان الرجال ، رافلات فى ثيابهن البيضاء ، وقد انحسرت ثغورهن الضاحكة عن أسنانهن الناصعة .. دفع النافذة بشدة وقد أمسك بمصراعها الخارجى .. تحطمت النافذة ، وانفتحت،ولم يبق من زجاجهاسوى كسرة صغيرة علقت بمزلاجها. وفى خضم الجلبة الحادثة صاح :

ـ الانتقام !

انفض كل شيء . الوصال ، والضحك ، والمرح . ثم تعالت صيحة أخرى :

ـ النار !

سيشتعل الديناميت أيضا ! لن يفلتوا ، كلا ، الباب أحكم اغلاقه ، والمفاتيح القيت بعيدا . وانتقام التعساء يبدأ !

نزل بسرعة ولكن بحذر ، وان كان يعرف كل حجر من أحجار السور فقد سبق له أن صقلها مرارا ليكسوها بالطلاء ! لن ينجو أحد . ومن جرؤ على الاقتداء به ، والنزول من حيث نزل هو ينتظره موت آخر .

قفز الى الأرض ، وجرى يختبىء وسط الشجر ، وقد غلبته نوبة من الضحك أشبه بالبكاء!

ارتجت الأرض ، وانفجر دوى شديد ، وتطاير كل شيء فى الهواء . ومض وهج لامع ، وتصاعد غبار ، ودخان أبيض يغطى وجه النجوم ...

تم الانتقام !

تساءل كاميناس : « وبعد ؟ »

أحس فراغا فى الموضع الذى كانت تشغله الوجوه المكروهة ، ومثل وحش أعمته شهوته عاد حقده فى أعماقه يفتح ويطبق فكيه الضاريين ، نهما متعطشا للدماء !

كلا ، كلا ! لن تتمخض الكراهية التى فى قلبه ، كراهيتهالتى لا نهاية لها فتلد هذا الانتقام القاصر فحسب ، أبدا . أبدا ، لن يلد الجبل فأرا ، ولا النمر نملة !

التفت الى القصر القديم ، وسأله :

ـ ايه ، أيها القصر العجوز ، بما كنت ستنصحني لو قدرلك أن تتكلم ؟

تردد الصدى فى أرجاء القصر محاولا أن ينقل اليه ماذايقول القصر العتيق ! اجفل مذعورا . راودته ذكرى قديمة . هكذاكانت أمه تبكى عندما كانت تحل النكبات ببيتهما !

اندفع داخلا الى القصر ، وأجال بصره فيــه . ومن السقف المهدم رأى نجوما يخفق نورها . وسمع دبيب حشرات وحفيف أجنحتها . ترى ، أكان ذلك صوت أمه ؟

صاح قائلا : « أماه ! » وصدق ما قاله .

كانت الساعات تمر بحلوها ومرها . اما الساعات السوداء ، مثل بنات خادمة القناديل ، فقد خيمت هناك .

علقت أنظار كاميناس ـ وقد اتكأ الى الحـائط الخفيض ـ علقت بالنوافذ التى ما زالت مضيئة بالبيت العـدو . أرتسم فى مخيلته ذلك الذى كان يتمنـــاه . أن يسحقهم ، ان يقتلهم ، ثم يبعثون توا ، ليعاود سحقهم وتعذيبهم وقتلهم من جديد ، دون أن يكل أو يكف عن ذلك أبدا ، أبدا ! وأن يظل هذا المشهد متصلا على مر العصور والأزمان !

توقف كاميناس عن أفكاره ، وهم بالانصراف ، لكن الوقت لم يمهله . كان القصر القديم قد تعب من عبء السنين ، وانهـــكه صراع الأشباح ، فمال وانهارت دعائمة دافنة تحت الأنقاض انسانا ضئيلا تأجج فى قلبه حقد مهول .

غريغوريس كسينوبولوس

أغاريد

من يريد أن يترجم أغاريد الطير الى لغة مكتوبة يسطر نغمات من هذا القبيل :

ــ تسيو ! تسيو ! تسيو !

أو :

ــ تسيفيزى ! تسيفيتى ! تسيفيتيتى !

أو (صدقونى فقد صادفنى ذلك أيضا) :

ــ قر ررررر ... تسا ، تسا ، تسا ، تسا ، تسا ! ...

ايه ، لكن الأمر لم يكن مجرد حروف من الأبجدية ، بل ان أوركسترا كاملة من عازفى الناى والمزمار والكمان والفيولينسيل ما كانت لتقدر على تقديم كل تلك الأنغام المنبعثة من دار السيد أناستاسى والد زافيرولا .

كانت الدار بجوار « القديس بولس » فى « تساروخاريكا »، بيتا ضيقا عاليا ، مثل برج الأجراس فى كنيسة ، فقد كان يتألف من ثلاثة طوابق ، ولكل طابق نافذتان فحسب . والذى كان يزيد من شبه البيت بالبرج وجود صف من الأقفاص الصغيرة

والكبيرة متراصة ومعلقة تحت كل نافذة على واجهـــــة البيت المطلية بالجير الأبيض . وكانت هذه الأقفاص تبدو من بعيد كمـا لو كانت شرفات ذات قضبان رفيعة حوطت بالبيت فى صـــفوف ثلاثة .

وكان فى تلك الأقفاص المختلفة الأحجام آلاف الأصناف من الطير ، من حسون وزرزور وعصفور وكروان وكنـــارى وشرشور وقنبرة وشحرور . وكانت تغرد بلا انقطاع منــــذ الشروق الى الغروب : تسيواتسيفيتى ! تساتسا ! .. (لكن ، كلا ! قلنا ان هذه لا نسطر على الورق) ولم تكن الأقفاص العديدة مرصوصــة على واجهة البيت فحسب ، بل وعلى خلفيته أيضا التى تطل على شارع القديسة اناه ، وكانت فى الغرف مدلاة من الســـقوف ومعلقة بالحوائط وفى الأروقة والفناء ، بل وفى المطبخ أيضا ، فى كل أرجاء البيت ، حتى انك لتقول أن الدار ما عادت تتسع حتى لقفص يمامة .

وذلك لأن بيت السيد اناستاسى فى « تســاروخاريكا » لم يكن مجرد دار للسكنى بل كان أيضا دكانا و « معمل تفريخ » . فقد كان السيد اناستاسى المعنى الأول بالطير فى البلدة يربيهـا ويبيعها . لقد كان يشقى مع هذه المخلوقات هذا المسكين بدوره من الشروق الى الغروب دون أن يشاركها الغناء لأنه كان وقورا جدا وغضوبا الى حد ما . كان رجلا فى الخمسين من عمـره ، أرمل يعيش مع ابنته الوحيدة زافيرولا وخادمة عجوز اســـمها مادلينا .

كان السيد اناستاسى متيما حقا بالطير .. ولهذا ، لئن كان قد مضى على وفاة السيدة اناستاسينا زوجته أعواما كثـيرة الا انه لم يتزوج مرة ثانية مثل الصانع المبرز يرفض المــــرأة حتى يكرس نفسه لصنعته . أما زافيرولا فهى فتـــاة فى الثامنـة عشرة

من عمرها ، سمراء ممتلئة الجسم ، تكن للطير الفضول والحب الذى تكنه له كل الفتيات . اما العجوز مادلينا ، تلك المرأةالنحيلة البليدة ، فقد كانت تنظر اليه بنفور وشذر ، مثل كثـــير من العجائز منحرفات المزاج .

كان السيد اناستاسى يقول :

ــ طيورى ...

وكانت زافيرولا تقول :

ــ الطيور ...

اما مادلينا فقد كانت تقول :

ــ تلك الطيور المقيتة ..

وكلما سمعها السيد اناستاسى صب عليها لعناته وقال :

ــ قطع لسانك ! أيتها الحمقاء !

ولو لم تكن أمينة رغم كثرة تذمرها ، وتسدى له العون فى العمل ، لطردها من خدمته ، وتوخيا للحق نقول انه فى الآونة الأخيرة كان العون الأكبر يتلقـــاه من العجوز مادلينا . كانت هى التى تغسل الأقفاص فى الفجر ، وتدخلها فى الليل . كانت هى التى تقوم بتنظيفها ، وتطهو البيض وتدق اللحم الذى يتألف منه غذاؤها . أما زافيرولا فقـــد كانت قد ركنت الى الخمول . كانت تقضى أوقاتها غارقة فى شرود لذيذ ، تهدهدها أهازيج الطير التى لا تنتهى . وكانت ترقد بدورها بين يديها أو فى حجرها قطعـة بيضاء من أشغال الابرة . وعندما كان أبوها يناديها كانت تنهض بفتور وتتنهد تنهيدة صغيرة . أما اذا نادتها ماديلينا طالبة منها أن تساعدها ، فلم تكن تعرها التفاتا ، أو كانت تجيبــها قائلة : « انى قادمة اليك ، حالا ! » دون أن تذهب اليها قط ...

وعندما كانت تصمت أهازيج الطير بالليل كانت زافيرولا تستمع الى موسيقى أخرى .. كان مينيغوس ، الشاب الوسيم ذو الخصلات السوداء ، يعزف قيثارته من المحل المقابل ، وهو محل صديقه خريسوسباثى الحلاق ، ويسكرها بأغانيه . وبامكانى مرة أخرى أن أسطر لكم هنا بأحرف ما كان يقوله ، وبعلامات ما كان يغنيه ، لكن كيف أستطيع أن أصف لكم هنا بالكلمات حلاوة صوته ، ورعشته الجياشة بالعاطفة ، وتلوينات حنجرته ؟ كان غناؤه مثل تغريد الطير ، بل أن غناء هذاالانسان العاشق كان اكثر احكاما ومشقة ، فهو يبث فى انغامه لواعج قلبه التى تزداد تأججا ، وهو يرى أمامه معبودته التى يشتاق اليها قلبه ، ويلمح عند الشباك وجهها الصبى الممتلىء ناصعا مثل زنبقة بيضاء ... وبهذه الموسيقى كانت روح الفتاة تطرب بطبيعة الحال أكثر مما تطرب لموسيقى طيورها . ولما كانت هذه الموسيقى تفتح أمامها آفاقا ودروبا جديدة من السعادة ، فقد احبت المنشد عذب الصوت مينيغوس . ولهذا كانت تغرق هذه الايام فى شرود لذيذ ، ولهذا أيضا كانت تنسى شغل الابرة بين يديها ، وعندما كانت تناديها مادلينا كانت تجيبها قائلة « انى قادمة اليك ، حالا » ولم تكن تذهب اليها قط ...

كانت زافيرولا تعرف جيدا لماذا يغنى مينيغوس .ستقولون، ان كل فتاة فى سنها تعرف ذلك ... أجل ، لكن ابنة بائع الطيور قدر لها أن تعراف الأمر أفضل مما تعرفه غيرها على أى حال . ذات يوم ، فجاة ، وهى تضع بعض القنب فى قدح صغير وتصغى الى عصفور يغنى ، سألت السيد اناستاسى :

ــ لماذا يا أبى ، يغرد الطير ؟

أجاب اناستاسى :

ــ كل يغنى للآخر ، لكل أذنين صغيرتين تسمعان .

وقالت زافيرولا:

ـ أصدقني القول ، يا أبى ٠

لم يضف السيد اناستاسى كلمة الى ما قاله ، لكنه غرق فى التفكير ، وبعد فترة طويلة من الوقت ، حتى أن زافيرولا فرغت من تعليق القفص الذى انكبت على تنظيفه ، ونسيت السؤال الذى وجهته ، تعالى صوت بائع الطير يقول كما لو كان يحادث نفسه:

ـ لماذا يغرد الطير ؟... وهل أعرف أنا لماذا يغرد الطير؟... لكن لماذا لا يغرد السمك مثلا ؟ .. الأجدر أن يسأل السيد الاله!

ويبدو أن زافيرولا كانت قد فكرت فى الأمر هذه الأثنـاء ، فقالت :

ـ لكن ألا ترى يا أبى ان الذكـــور وحدها هى التى تغنى ؟ لا تغنى الاناث قط . لماذا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه .

بادرها السيد اناستاسى مداعبا :

ـ لأن الاناث ماكرات !

قالت زافيرولا مبتسمة :

ـ لا أصدق ذلك ٠ لا بد أن ثمة سببا آخر ٠ عندما سـأقابل الأب بوليذوروس سأستفسر منه . لابد انه يعرف !

وأجاب السيد اناستاسى قائلا :

ـ اسأليه لو لم يضربك . لكن ، انظرى الآن ما اذا كانت تلك العجوز مادلينا قد سوت البيض لكى تطعم الكنار . تحتـاج الى عشر ساعات لذلك ، خيبة الله عليها !

انتهى الحديث عند هذا الحد . ولكن قبل أن تسأل زافيرولا

الآب بوليذوروس ، سارع السيد اناستاسى فى مساء اليوم ذاته بالذهاب الى صيدلية الحى ، التى كان يأتى اليها بين الحين والحين يسأل حكيما .

ـ الأمر جد غريب ، يا سيدى الدكتور ! تصور ماذا بدا لابنتى ان تسألنى منذ الفجر عندما كنا ننظف الأقفاص ؟... اعوذ بالله من هذه الفتيات .. يسألن عن كل ...

تنحنح الصيدلى ، وابتسم . وتجمع آخرون فى الصيدلية ليسمعوا ما سيدلى به من قول حكيم . وتفضل فأوضح للسيد اناستاسى كيف ان ذكور الطير تغرد لاغراء الاناث . فتلك الذكور مثل العاشقين الذين يعزفون الموسيقى بالليل تحت نوافذ عشيقاتهم .

وأضاف الصيدلى قائلا :

ـ ولهذا ، يتميز الذكور أيضا بريش أجمل وأزهى. ويحاول كل ذكر من غير كلل أن ينتصر على منافسيه بحلاوة أغاريده المتنوعة ، وأن يتزوج اليفته .

فتن السيد اناستاسى الساذج صافى القلب بهذا الايضاح الذى لم يكن قد توصل اليه عقله من قبل رغم انه يعمل تاجر طير منذ أمد طويل . وعاد الى البيت ، وقد امتلأ فرحا كما لو كان يحمل كنزا . ولما كانت مثل هذه الأحاديث لا تناسب ابنته ، فقد أفضى بها الى العجوز مادلينا ، التى ما لبثت أن نقلتها الى سيدتها فى اليوم التالى . ومن ثم عرفت زافيرولا ، على وجه التقريب : لماذا يغرد الطير ، ولماذا يغرد الذكر وحده ، وماذا يعنى تغريده . شذرات فحسب من كلام الصيدلى ـ كما تفهمون ـ وصلت الى سمعها . لكنها بخيالها ، وبالقدر الذى كانت تعرفه عن الناس ، وعن الطبيعة ، وعن نفسها ، أمكنها أن تدرك

الأمر كله . ومنذ ذلك الحين كلما سمعت أغاريد الطير تنسكب من ألف قفص ، رأت عرسانا صغارا فى أبهى ريش يحاولون بصوتهم وزينتهم أن يحركوا عواطف عرائس عذارى صموتات . وانغرست هذه الرؤيا رويدا رويدا فى أعماقها حتى أنها صارت تتخيل بيتها كشىء شاعرى ، كجنة صغيرة تغمرها سعادة الحب بموسيقى عذبة ، عذبة الى أقصى حد .

وهكذا ، بعد أن عرافت من الألحان التى كان يعزفها مينيغوس أول الأمر أنه كان يهدف الى أن يستثير حبها له بغنائه فى محل خريسوسباثى الحلاق عازف القيثارة ، قالت تحدث نفسها :

ـ ها هو بلبلى ... وانا بلبلته .

ولكن لماذا لم تقل ها هو « عصفورى » أو « كروانى » أو « شحرورى » ؟ لم تقل ذلك لان فى تلك الآونة كان احسن مغرد لدى السيد انستاسى بلبلا . كان ريشه خليطا من البنى والأصفر الداكن تتماوج فيه خطوط خضراء غير زاهية . اما صوته فكان معجزة المعجزات ! لم تكن تلك الحنجرة حنجرة طائر بل كانت اوركسترا كاملة من الناى والمزامير والصفارات المعدنية . وكان السيد اناستاسى فرحا مزهوا ببلبله . عرض عليه أن يبيعه بريالين ـ تصوروا ! ـ ولم يقبل . كلا ! كلا ! هذا الطائر بالدنيا كلها ! سيحتفظ به لنفسه ، وسيحصل منه على سلالة طيبة . بل وقد أعد له عروسا تليق به ، بلبلة جميلة لفاء معتزة بذاتها ، فاتحة الصفار حتى انها لتبدو بيضاء . ولماذا وقع عليها الاختيار دون غيرها ؟ ايه ، كان السيد اناستاسى فى مسائل الحب هذه بارعا فى التوفيق بين المحبين ذكورا واناثا . كانت مهارته تتمثل فى الجمع بين الزوجين ، وتوجيه الانتقاء الطبيعى الى ما فيه صالحه . وباعتباره صاحب السيادة المطلقة والمتصرف الأوحد فى مصائرها ، اله الروح والجسد ، كان يزوج العريس بأية

عروس يريد حسنـــة أو سيئـــة ، تحلو له أو لا تحلو ، وتلك البلبلة الجميلة كانت من نصيب المغرد ذى الريش الجميل ، الا اذا تدللت العروس وتمنعت عليه تمنعا متواصلا ، ومضت تنقره أكثر مما يحتمل عندما يدخل الى قفصها .

وهكذا ، بعــد أن استمتعت البلبلة الجميلـة بأغاريد البلبل الغرامية الدافئة ، وضع السيد اناستاسى ، الذى كان يعـرف مواسم الغرام خير المعرفة ـ وضع البلبـــل فى ذات القفص مع البلبلة . كانت زافيرولا فى المقدمة ، بل وكانت تعاونه بحماسة، وقالت لنفسها بفرحة :

ـ وأنا أيضا بالمثل ... ذات يوم ، بعد كل هـــذه الأغانى الكثيرة ، سيأتون لى بمينيغوس ويضعونه فى قفصى ...

كان بامكانها أن تقول ذلك حقا ، فقد كانت وحيـدة والدها الذى كان بدوره أرمل ، ولم يكن ليمانع فى أن يأتى زوج ابنتـه ليقيم معه . ولما كان مينيغوس فضلا عن براعته فى الغناء بارعا أيضا فى النقش على الخشب ، ويشتغل عند بيليدى الذى كان ينتج أفخر الأثاث ويعتبر مينيغوس ذراعه اليمنى فى العمـــل، فقد كانت زافيرولا وطيدة الأمل فى أن اباها لن يعتـــرض على زواجها . ثم انه فى تلك الأيام ذاتها أخبـرت احـــدى خالات مينيغوس ابنة عمة لزافيرولا ان الفتى يحبها بحق وســـيطلب يدها ...

منذ اللحظة التى دخل البلبل الى قفص اليفتــه ركبـــه الصمت .. طوال ذلك اليوم ظل ابكم منطويا على نفسه . وظل على هذا الحال اليوم التالى واليوم الذى بعده ...

مضى السيد اناستاسى يقول :

ـ ماذا دهاه وحق الشيطان ! عجبا ، لم يعد هذا الطائر يغرد ! على انه عندما رآه ، ذات يوم ، في عناق مع عروسه الصغيرة ، ويتبادلان قبلة حارة خاطفة ـ قبلة طائرين جعلت الرأسين الشقراوين يرتجفان نشوة ، فكر العجوز وقال لنفسه مبتسما :

ـ ها هو يعانق حبيبته . ما حاجته الآن الى الغناء ؟...

على أن هذه الفكرة الصائبة لم تمنعه من أن يتذكر غناء البلبل ويتوق اليه . وذات صباح أثناء تنظيفه قفص العروسين، في حضرة زافيرولا دس يده من الباب الصغير وحصر الأنثى في أحد الأركان ، وربت باصبعه على رأسها يداعبها مغيظا . وقال لها حانقا :

ـ أيتها الأنثى القذرة ، أخرست بلبلي ! ... أصبحت ثقيلة على قلبي !

كان السيد اناستاسي يعرف من خبرته على أي حال ان الطيور عندما تتزاوج تكف عن الغناء . وعلى الرغم من حزنه للصمت الذي حط على بلبله لم يدهش كثيرا مما ألم به . أما زافيرولا التي لم تكن لها مالأبيها من خبرة ، فلم تكن تدري كيف تعلل الأمر . وكانت تقول للعجوز مادلينا ضاحكة :

ـ انها لا تهيىء له أسباب الحياة الرغدة . لقد انكمش المسكين ولم يعد ينبس بشيء .. وكانت مادلينا تجيبها قائلة :

ـ لا يعنيني الأمر في شيء ! بالعكس ، قلت الجلبة التي تخرق آذاننا صوتا واحدا ! فكرت زافيرولا مليا ،وقالت لنفسها:

ـ على أى حال ، سأهيىء له أنا أسباب الحياة الرغدة ،ولن يتوقف غناؤه أبدا ! أبدا ؟! ياله من قول كبير ، هذا الذى قالتــه زافيرولا الصغيرة !...

فى المساء غنى مينيغوس أحلى أغنياته فى دكان الحـلاق ، وفى صـباح اليوم التــالى ، وكان يوما من أيام الآحاد من أبريل ، دخل بيت السيد اناستاسى عريسا لابنته .. وفى المساء لا غناء، ولا قيثارة .. مر فحسب ببيت خطيبته ، وتبادلا حديثا حلوامن النافذة ، وقال لها متنهدا « طابت ليلتك » وذهب لينام ... فى اليوم التالى ، زيارة أخرى فى المساء،أما بالليل فلا شىء .أصبح الفتى من شدة سعادته يعود الى بيته الآن وينام مبكرا مثــــل الدجاج .. ربما كان يريد بذلك أيضـا أن يتظاهر أمام حميــه بالاستقامة والرزانة . ثم ، أية حاجة به الآن الى الغناء والقيثارة ؟ لقد انجز المطلوب ، ونال مرامه . البيت مفتوح والعــروس فى انتظاره . بامكانه أن يذهب اليها فى أى وقت شاء ، وأن يقبلها امام مادلينا ، ويقول لها انه يحبها . ما الجدوى من الأغنيــات اذن ؟

وفى غمرة الفرح والســعادة ، وربما كانتا أكبر بالنســبة لزافيرولا ، لم تتنبه الى ذلك الصمت . واذا كانت الآن قد فقدت الأغانى فقد وجدت القبل.وهكذا مرت الأيام فى سعادةوانشغالات هنيئـة ،لأن الأحد الأخير من أبريل الذى حدد لعقـد القران كان يقترب .

على انه فى ذات يوم ـ وأول الغيث قطرة ! ـ دب التـذمر بين الخطيبين . فكثرة الحب قد تجلب الكدر . خيل لمينيغوس أن زافيرولا تطيل النظر الى شاب وسيم ثرى آلف أن يمــر من الحي في طريقه الي الصيد ... وجه مينيغوس الى خطيبته كلمة

لوم ، فلم تقبلها وردت عليه بكلمة أخرى ، ومن كلمة الى كلمة بلغا الى حد البكاء وذرف الدمع •• أعنى أن زافيرولا هى وحدها التي بكت . وقد استبد بمينيغوس غضب حقيقى ، ولأول مرة انصرف دون أن يقبلها ، مكتفيا بأن القى تحية المساء بفتور ، وبلا تنهد ...

وفى تلك الليلة ، فى غمرة أفكارها المريرة ، تذكرت زافيرولا لأول مرة البلبل الذى كف عن الغناء ما ان دخل الى قفص انثاه ؛ وقارنت مرة أخرى بينه وبين مينيغوس الذى كف عن الغناء منذ أن دخل بيتها خطيبا لها .

كانت تقول مرتبكة فى وحدتها :

— ياله من أمر غريب ! انظرى ! منذ اليوم الأول ! منذ اللحظة الأولى ! ... يبدو الأمر كما لو كانوا قد عملوا له سحرا! ... الطائر والانسان سيان ، اذن ... أكان مينيغوس أيضا يغنى حتى يحملنى على أن أدخله هنا ؟ والآن ، بدلا من الأغانى سأتلقى غضبه وشتائمه . وأنا التى كنت أقول .. ويل لى ! .. ويل لى ! ..

والحقيقة انه لا البلبل غرد ولا مينيغوس غنى من جديد بذات الرغبة القديمة . عقد قرانهما وعاشا حياة لا بأس بها . ولم تتعرض زافيرولا لغضب زوجها وشتائمه كثيرا .. بل ان حياتها لم تخل من الكلام الحلو ومن الملاطفات التى كانت تتلقاها من بلبلها فى قفصها الصغير • على أن غناءه ، تغريده ، الذى كان يسكرها فى زمن الحب ، لم تعد تسمعه قط ... وهكذا ، بخبرة مزدوجة تعلمت زافيرولا العروس ابنة تاجر الطير اقانونا من قوانين الحياة.

نيقوس نيقولا ئيــدس

الخادمان

دق الجرس ، جرى بوليكاربو يفتح الباب .

تساءلت مارثا :

ــ من يكون الطارق ؟

ألقت نظرة سريعة الى الأرفف ومسند الأطباق . اصلحت غطاء المنضدة الذى زحزحه بوليكاربو بمرفقه من مكانه . وجمعت من أرض الغرفة أعواد الكبريت وأعقاب السجائر .

تمتمت تقول :

ــ رجل لا صلاح له . الكلاب والقطط يقوم سلوكها وتتهذب ، أما هو فيظن أن المطفأة توضع الى جواره للزينة فحسب !

عاد بوليكاربو واجما .

كان مطبقا راحتيه الكبيرتين مثل محارة .

ــ انه لغز ! سميه صدفة .. سميه أى شىء آخر .. اما أنا فأسميه لغزا !

ارتسم التفكير فى نظراته ، واغرورقت عيناه فرحا .

ــ مرة أخرى ، بدلا من أن أفتح الباب الصغير فتحت البوابة الكبيرة . انها المرة الثالثة التى يحدث لى فيها هذا فى عام واحد.

لمعت عينا مارثا فرحا .

ــ أجل زوجتى العجوز . فهمت اذن . خطاب ثالث .

فتح راحتيه وأبرز خطابا .

ابتعدت مارثا من العمود الذى كانت ترتكن اليه ، واتخذت وقفة احترام شديد .

ــ أجل ، فهمت .. انه من سادتنا .

ــ لتكن الأخبار طيبة ، يا الهى ...

ــ ... وبعد ذلك يقول البعض : مجرد صدفة ، أو شىء من هذا القبيل ! .. يدق الجرس كل لحظة وأخرى ، وتتكاسلين عن النهوض . اصبحت تتراخين فى اداء الخدمة ، مللت واجبك ونسيته ، وتقولين بغير اكتراث « فليدق الباب . ليس ثمة أحد ... » أو ربما يستيقظ فى البواب الذى كنته فانفض الأغطية عنى وأمد يدى .. آملا فى كل مرة أن أتسلم خطابا من سادتنا .

ــ ارجو يا الهى ، ان نلقاهم فى أحسن حال !

ــ ... وبعد ذلك يقول لك البعض أنها مجرد صدفة ، أو غير ذلك من تلك السخافات التى يرددونها !

ينهض العجوز ويفتح الباب . وتسارع امرأته ، التى لم تكن تنتظر زوارا ، الى ترتيب المطبخ ، وأجمع أعقاب السجائر التى القاها العجوز النكد .. وبعد ذلك ... « ما الأمر ؟ » « خطاب » تقف العجوز وتكاد تقول « أوامرك ياسيدتى » واذا بالخطاب من أصحاب البيت ! ألا يعتبر بعد كل ذلك « لغزا » ؟!

ـ كف ، أيها العجوز عن فلسفاتك ، واقرأ حتى نعرف الأخبار الطيبة . ألا تستطيع أن تفهم أن سادتنا أصحاب البيت ما زالوا بعيدا ولم يحضروا بعد ؟

ـ وأنت أيضا ؟! من ذا الذى يمكنه أن يقول ان أنفاس سادتنا لا تملأ البيت مهما بعدت بهم الشقة ؟!

كانا زوجا من ذلك الصنف النادر من الخدم الذى يتزوج وتدركه الشيخوخة فى البيت ذاته ، وفيا مكرما مثل كلاب حائزة على الرضى والمديح . شاركا الأسرة فى كل أفراحها ، وإتراحها . اعدت مارتا غرفة الاستقبال الكبيرة وأوقدت الثريات فى كل المناسبات السعيدة . وفتح بوليكاربو البوابة الكبيرة لكل الجموع البهيجة من الأصدقاء القادمين الى أفراح البيت . على أن مارتا هى التى غطت أيضا المرايا والثريات بالأغطية السوداء ، وأسدل بوليكاربو الستائر الثقيلة السوداء على الباب ، ونكس الرأس عند مرور الأصدقاء الحزانى القادمين لتقديم العزاء .

كم من مرة شاركا أهل هذا البيت بكاءهم على أحبائهم الذين ماتوا !

وعندما حلت الفاجعة الأخيرة ، ورحل اصحاب البيت مثل طيور مذعورة لينقل الأب والأم ابنهما الى جو آخر ، وينقذاه من الداء العضال الذى اطبق عليه مثل شتاء مباغت ، بقى بوليكاربو ومارتا لحراسة البيت .

كان سلوك الخادمين فى البيت الرحيب جديرا بالاعجاب .

أبيا أن يكونا مثل نبات طفيلى فى حديقة لم يعد يتعهدها بستانى ، وأحجما عن أن يمدا اقامتهما الى ما هو أبعد من غرف الخدم .

كل ما أقدما عليه أنهما وضعا أزيكة مؤقتة ومنضدة الى جانب

المدفأة فى المطبخ ، ونقلا من غرفتهما المقعدين القديمين ، وسلة الخيط ، والابر التى ترفو بها مارتا الجوارب وتغزلها ، والكيس الذى يضع فيه بوليكاربو تبغه .

كانا يستيقظان فى ساعتهما المعتادة ، ويرتبان البيت كله ،كما كانا يفعلان من قبل ، موليين اهتمامهما الى كل الدقائق التى تجعل ترتيب البيت ونظافته على غاية من الاتقان . وكانا يؤديان كل هذه الأعمال ، كما كانا يؤديانها من قبل ، بكل حذر حتى لاتقع جلبة توقظ سادتهما . وبعد ذلك كانت تلبس مارتا ميدعتها البيضاء منشاة العنق ، وترتدى غطاء الرأس وكان يلبس بوليكاربو زيه البنى . ثم يمران بهدوء فى الأروقة الطويلة لالقاء النظرات واللمسات الأخيرة على ترتيب البيت ، صوتهما خفيض وخطواتهما بلا جلبة ، كما لو كانا لا يدركان أن البيت المترامى الأطراف خاو لا أحد فيه غيرهما ، ويتوقعان أن يظهر سيدهما وسيدتهما عند باب غرفة النوم المغلق فى أية لحظة .

غرفة الاستقبال الصغيرة الدافئة فى الشتاء بفضل مدفأتها الجيدة ، رتبت وأغلقت فور أن رحل أصحاب البيت . الثريات المعلقة والصورة الكبيرة غطيت بالقماش ، أما المصابيح والآنية فقد لفت بالورق — فى غرفة الاستقبال الصغيرة هذه كان رب البيت وربته يقضيان أمسيات الشتاء الطويلة . وكانا فى جلستهما بجوار المدفأة الموقدة يتذكران بحسرة أسماء من مات من أولادهما ، ويتكلمان عن ابنهما الأخير الذى يتلقى علومه فى الخارج بلهفة حلوة ، وعن أصدقائهما المبجلين بمودة ، وخدمهما المخلصين بكل خير .

مضت سنة دون أن تفتح غرفة الاستقبال هذه مثل سائر الغرف ليتجدد هواؤها وتدخلها الشمس .

كانت روحاهما الساذجتان اللتان ما كانتا تخلوان من عمق

تشعران بأن جو غرفة الاستقبال هذه ما زال يحتفظ بالكثير من سيديهما ، ولهذا كان يجب أن يحافظا عليه .

كان بوليكاربو يقرأ الخطاب متأثرا حزينا . كان مكتوبا بخط سيده ، وأخذ صوت بوليكاربو يكتسى رويدا . رويدا النبرة المقنعة التى كانت لصوت سيده عندما كان يوجه اليهما حديثه . وقفت الخادمة تنصت فى وقار عميق .

كان يحكى تطورات المرض الذى ألم بالسيد الصغير :

... « انه الآن بخير ، لا خطر عليه ، فقـــد دخل مرحلة النقاهة . لم يرد الله أن يتركنا بلا أولاد ، حمدا له » .

ـ حمدا لك ، يارب .

.. « لكن يجب أن نبقى هنا بعيـــدا عن بيتنا ، وقتا ما زال طويلا ، سنة أخرى ، أو ربما أكثر من ذلك . الجو منـــاسب ، والأطباء أكفاء ، وامكانات العلم وفيرة . هنا ، سنحارب الموت حتى النهاية . »

ـ آمين ، يارب !

ثم سأل سيدهما الطيب عن صحتهما ، وعما اذا كان الوكيل يتأخر فى دفع راتبهما وتدبير كل ما يلزم لمعيشتهما ، وهو ينصح بوليكاربو أيضا بألا يقتر على نفسه فى شيء ، فأنبذة القبو تحت أمره ، وليدخن من تبغه ما يشاء .

ـ هذا من كرمك ، يا سيدى .

وفى ذيل الخطاب ، كتبت ربة البيت أيضا بضع كلمات بخط يدها .

« عزيزتى مارثا . عرفت مما تطالعنا به الصحف أن الشـــتاء عندكم هذا العام كان أشد ، لكننى أرجو أن تكون مدفأتنا فى غرفة الاستقبال الصغيرة بخـــير على الدوام . وان تبعث الدفء فى أوصالكما . وبطبيعة الحال ، ستعود القطة الصـغيرة التى كنت تشكين من انها لا تستقر فى البيت ، وستنعم بالراحة الى جوارك . ان وشاحى الأسود ذا النقاط البنفسجية يصلح لك . ضعيه على كتفيك . انه من الصوف الخالص وسيدفئك .

ـ يا لسيدتى الحبيبة الغالية !...

ارتبطت الفرحة لسماع الخبر الطيب عن صحة السيد الصغير ، والحزن على تأخرهم عن المجىء ، بشعور ثالث . نكس الخـادمان رأسيهما فى صمت وقد غمرهما احساس بالحياء العـذب الذى ينتاب الناس البسطاء عندما يوجه اليهم مديح كبير .

تمتم بوليكاربو بعد برهة طويلة :

ـ حقا ! عشنا فى البيت كما لو كانت تنقصنا الثقة بالنفس ، ونخشى أن نكون قد أسرفنا فى استهلاك محتويات القبـــو ، وان تكون غرف الاستقبال قد اتسخت من لمسنا مفروشاتها .

ـ لم نفتح القبو مرة ، ولم نلق على ما به نظرة قط .

ـ هلا فتحنا غرفة الاستقبال الصغيرة مثلا لنرى حالها ؟!

استعدا فورا للعمل . شمرا عن سواعدهما . وفتحا غرفـــة الاستقبال الصغيرة .

ـ ياه ياه ! تراكم التراب فى ارجائها بشكل مخيف !

ـ حمدا لله على أى حال . كان من الممكن أن تسيل المياه من المدخنة الى المدفأة ، فتسبب تلفا جسيما هنا !

فتحا النوافذ . حملا الطنافس الى الخارج . نظفـــاها ، وكنساها ، ثم نظفاها من جديد . ازاحا الغطاء عن الثريا ،والمرآة، والصور . فضا الورق الذى لفت به الشمعدانات والآنيـــة . ولا يذكران انهما قد اشتغلا بهذه السرعة منذ أن بقيا وحدهمـــا فى البيت قط وقد مضت منذ ذلك الحين سنوات عديدة . انكبا على غرفة الاستقبال الصغيرة بالحماسة التى يقبل بها المرء على عمل تلجئه اليه ضرورة عاجلة . لم يكن كل منهما يفتح فمه بكلمة الا ليأمر الآخر بعمل .

فرشا الطنافس ، ورتبا الغرفة بعناية فائقة . وقبل ان يهبط الليل ، كانت غرفة الاستقبال الصغيرة معدة تماما .

كما أوقدت مارثا المدفأة . ووضعت بنا طازجا وقطعـــا من السكر فى علبة البن على منضدة صغيرة قديمة بالقرب من المدفأة، حيث الفت سيدتها ان تجهز القهوة كل ليلة لزوجها .

ملأ بوليكاربو الساعة التى كانت قد توقفت اليوم الذى سافر فيه أصحاب البيت .

أصبحت غرفة الاستقبال الصـــغيرة جاهزة تماما . توهجت النار فى المدفأة . دفع بالمقعد الجلدى العميق ليزداد اقترابابعض الشىء من المدفأة . وكذلك دفع بالمنضدة الخفيضة بما عليها من تبغ رب البيت .

وقبـل أن يغـادرا الغـرفة وقفا وقتـا يفكران ، ثم تلاقت نظراتهما .

ــ .. الا يخيل اليك بدورك ان السادة سيأتون بين لحظـــة وأخرى ؟!

ــ .. أجل !

أغلقا الغرفة ، ومضيا ألى المطبخ لتناول الطعام . نزل بوليكاربو الى القبو واحضر زجاجة من النبيذ .

ـ ياه ! ياه ! عششت العناكب فى كل الأرجاء .

وقالت العجوز :

ـ حمدا لله على كل حال . كان يمكن أن تدخل الميـــــاه من الفتحات ، وعندئذ كنت سترى ماذا كان سيحدث هناك .

تناولا طعامهما على عجل دون أن ينبسا بكلمة . لكن مارتا لم تتعجل وضع اناء القهوة على النار . ولم تبسط الغطاء الداكن على منضدة المطبخ ، وتحضر السلة التى بها كرات الصـــــوف وابر الجوارب ، بل نهضت وذهبت الى حجرتها لتغير ملابسها . فضت أيضا الميدعة الموشاة بالدنتيلا المنشاة لتلبسها ، لـــكنها صرفت النظر عنها . اشعلت قنديلا ومضت الى غرفة سيدتها . فتحت دولابا ، وأخذت الشال الأسود ذا النقاط البنفسجية ، واجتازت الباب الداخلى الى غرفة الاستقبال الصغيرة .

كانت الغرفة مفعمة بدفء حلو ، والمدفأة مليئـــة بقطع الفحم الصغيرة . اضاءت مارتا مصباحين من مصابيح الثـــريا . وضعت اناء القهوة على المدفأة ، وتدثرت بالشال الثمين ، ثم جلست على الأريكة الركنية الخفيضة . كما تناولت الكتاب المقدس المجـــلد بالقطيفة القرمزية ، الذى كانت تقرأه سيدتها كل ليلة . فتحتـــه حيث طوى على شريط تدلت منه صلبان الأولاد الصغيرة ، واخذت تقرأ .

سمعت فجأة خطوات زاحفة ...

ـ انه السيد !...

وهبت واقفة !...

إفتح الباب ببطء ، ودخل بوليكاربو .

شهقت شهقة عميقة ، وصاحت :

« أوه الصعلوك ! .. لبس خفى سنيده ! .. » لكنها سرعان ما جال بخاطرها خاطر واردفت تقول : « فليعودوا بسلامة الله .. ولا يهم بعد ذلك الا يجد السيد خفا يرتديه » .

قال بوليكاربو :

ـ المدفأة الخالدة ...

وجلس فى مقعد سيده العميق .

قالت مارثا :

ـ حقا ، ليس عندنا فى البيت مدفأة أخرى مثل هذه .

واخذت تعد القهوة ، ثم قدمتها الى زوجها ، وعادت تجلس فى مقعد سيدتها الخفيض .

قال بوليكاربو ، وهو يأخذ بعض التبغ من على المنضدة الواطئة :

ـ عزيزتى ، الا تعتقدين انت أيضا ان بامكان الناس أن يزدادوا تقاربا .. اعنى أن يمدوا أيديهم الى بعضهم ، ويحيوا فى ثقة ومحبة !؟

دس سيجارة فى مبسمه ، وأشعل عودا من الثقاب . مضت مارثا تتطلع اليه .

نفخ فى عود الثقاب وأطفأه . جذب الى جواره منفضة ، والقى به فيها .

ثمتمت مارثا تقول :

ـ هذا أمر صعب التصديق !

وتساءلت :

ـ كيف حدث هذا ، ولم يلق بعود الثقاب على الأرض المغطاة بالطنافس !

اردف يقول وهو يرشف من قدحه رشفات خفيفة :

ـ يمكن للمرء أن يقول : نسي البشر انهم طـريدو الله الحي القيوم . حقت عليهم لعنته بأن يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم . أجل . وهم يتصرفون كما لو كان الذى لا يموت قد مات دون أن يخلف وصية ، وانقض الورثة المطرودون على ممتلكاته وخطف كل منهم ما امكنه خطفه ...

عادت مارثا تتمتم من جديد دون وعى منها وهى تنظـر فى دهشة الى زوجها الذى كان ينفض رماد سيجارته فى المنفضة :

ـ هذا أمر صعب التصديق ...

اكتسبت حركاته وكل تصرفاته ـ جلسته فى المقعد العميق ـ مده لساقيه نحو المدفأة ـ بمسـحة من الرقـة والأدب تذكر بسيدهما الى حد بعيد .

ـ وانى .. لافكر ، يا عزيزتى ، فى كل تلك المنظمـات التى تعمد ـ بدلا من أن توثق أواصر الصـداقة بين الناس ـ تعمد الى ايقاع الفـرقة بينهم بتقسيمهم الى شيع وطوائف ، وتحاول أن « تألب البعض على البعض » .

كانت العجوز ترقب زوجها باستغراب . لقد تصـادف أن سمعته كثيرا يتناقش بجوار المدفأة فى المطبخ مع خدم من زملائهما

عن « منظمات » و « طوائف » لكن الكلام كان يخرج من فمه الليلة مختلفا . كان أسلوبه فى الحديث لينا هادئا .. وكل ايمـــاءاته وسكناته تذكر بسيدهما .

ـ ما أجمل حديثك الليلة ، يا عزيزى بوليـــكاربو ... انك تتكلم مثل ... اكمل عبارتها قائلا فى تواضـــع وهو يضع عقب سيجارته فى المنفضـــة ويضغط عليها بالـكيفية التى كان يضغط بها سيده على سيجارته ليطفئها :

ـ مثل كل رجل عاقل .

خيم الصمت .

كانت مارثا تقرأ الكتاب المقدس . نهض بوليكاربو ، وتمطى. تناول مسبحة سوداء وأخذ يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهابا .

وقف لحظة الى جوار المنضدة فى الركن.ومن خلف اناء زجاجى يغطى ببغاء محنطة أخذ مظروفا من ورق شمعى واخرج منه قطعة مربعة من خشب الجوز منقوشة ومطلية بالألوان وبماء الذهب . مسحها فى عناية بمنديله ، ووضعها باجلال فوق المدفأة بين باقتين من الورد المصنوع من الشمع غطيتا باناءين زجاجيين .

عاود الجلوس فى المقعد الجلدى . وأشعل سيجارة ثانيـة . منذ اثنى وثلاثين عاما عندما دخل الخدمة فى هذا البيت الثـرى رأى قطعة الخشب المحفورة مطوية داخل صندوق ، وسأل سيده العجوز « ما اذا كان هذا الوحش الذى نقش عليه يمســك بدرع الأسرة » ؟ وأجابه سيده « هذا محتمل جدا » وعندما زال عنـــه خجله قال له « فى بيت السيد كونتى الذى كنت أشتغل عنـده يضعون الوحش المسك بدرع الأسرة فوق المدفأة ، وهو منقوش أيضا بأعلى الباب الخارجى ، وعلى أزرار الخدم ، وعلى المــلاعق

والأشواك ... » وقال له سيده العجوز « ها هو درع عزتي .. أحتفظ به في قلبي . وسترى أن حبه سينحفر رويدا رويدا في قلبك أيضا ! » وأشار الى ابنه الذى كان يصعد الدرجات مع ولديه الأولين .

كفت مارتا عن القراءة . ظلت ممسكة بالكتاب المقدس مغلقا وراحت تتأمل في حزن الصلبان الستة المدلاة من طرف الشريط.

استدار بوليكاربو ورآها . خطر له خاطر .

ـ انها السيدة بذاتها ! تلبس شالها ، وتجلس في مكانها .. بل ان كيفية جلوسها ... ونظراتها ! .. كأنني أرى سيدتي في كامل عزها وأبهتها ! .. ألا تقولين شيئا يا عزيزتي ؟!

أجابت بحزن عميق :

ـ يا صديقي ، أفكر في السنين التى كان البيت فيها عامرا .. عامرا بالأولاد ! اما الآن ، فقبضتي تمتلىء بصلبانهم فحسب ! ...

قال بوليكاربو لنفسه :

ـ انها السيدة بذاتها !

وراقبها وهي تبسط الصلبان الصغيرة في راحة يدها ،وتنطق بأسماء أولاد سيدتها الخمسة الذين ماتوا :

ـ كأني أسمع سيدتي وأبصرها أمامي !

طوت مارتا الصليب السادس في قبضتها بقوة . وقبلته برفق ، ونطقت في اهتمام وحنان باسم آخر أولاد سيدتها الموجود في الغربة .

ـ كأني أرى سيدتي بلحمها ودمها .

وتحدثا بحب عن سادتهما ودماثة أخلاقهم .

تذاكرا أيضـــا خادمين قديمين آخرين كانا « تحت أمرتهم » وأشارا اليهما بالخير .

ـ كأني أرى وأسمع سيدي ذاته !

خيم بعد ذلك صمت مديد .

فتح الباب بهدوء ، ودخلت القطة الصغيرة ، التي لم تعـــد تأتي الى البيت بعد أن سافر السادة . تقدمت بخطوات وجلة الى منتصف غرفة الاستقبال ... وقفت هنيهة ... وفجأة تعـــالى مواؤها . ثم مضت رأسا الى العجوز وصعدت الى حجـــرها . وجدت مكانها سريعا ، ومضت تصدر من حلقها ذلك الصوت الذي ينم عن الارتياح والقنوع .

دقت الساعة على المدفأة معلنـــة الوقت ، كما لو لم يكن قد توقفت عاما بأسره .

ـ ألم يحن وقت النوم ، يا زوجي ؟

ـ بلى ... يا عزيزتي .

نهضا واقفين .

بقي شال السيدة على الأريكة . طوته الخادمة ووضعته هناك . رفع الخادم مسبحة سيده من على السجادة .

انصرفت القطة الصغيرة لحال سبيلها .

رتبا غرفة الاستقبال الصغيرة . واغلقا المدفأة .

ـ أيتها العجوز الصغيرة ... ألا يخيل اليك اننا دخلنا هنا توا ، حيث كان سيدى وسيدتك يقضيان بعض الوقت قبل أن يذهبا ليناما ، وذلك لكى نغلق المدفأة ونطفىء النور ؟

ـ أجل ... يكاد يخيل الى شيء من هذا القبيل .

والتفتت الى زر الجرس الكهربائى القريب من الأريكة التى فى الركن . رأت خيوط العنكبوت تغطيه ! أخرجت منديلها ومسحته .

ـ فليعودوا بسلامة الله ، حتى يتمتعوا ببيتهم العامر !

ذهبا الى غرفتهما . واخذا يتهيآن للنوم صامتين غارقين فى الأفكار . ويسقط خطاب السيد من جيب قميص بوليكاربو . انحنى يلتقطه فلاحظ ان بالصفحة الخلفية ، بعد تعقيب سيدتهما ، بضعة سطور أخرى بخط سيدهما الصغير .

« عجوزاى العزيزان ، صحتى تحسنت كثيرا . لن أموت . سأعود الى بيتنا ! اننى اذكركما دائما ، واحبكما . انتما ماثلان فى ذكريات طفولتى ، وترتبطان بانطباعى الأخير عن بيتنا .

عند رحيلنا ، القيت من داخل العربة نظرة يائسة ، معتقدا اننى كنت أرى فناءنا ، فرأيت عجوزى الطيب بوليكاربو يحمل معطفا أسود لوالدتى مغزولا بخيوط غليظة ، وخيل الى كما لو كان يحمل اناء أسود مليئا بكل دموع أسرتنا القديمة والجديدة . كما رأيت عجوزى الطيبة مارنا تتبع والدتى وتبكى على الورود الأخيرة الشاحبة التى طلبت منها أن تقطفها لى ... »

نيقوس نيقولا ئيـدس

الكَلب
الغريبُ

عندما دب الضعف الى عينى الأب ، الى الحد الذى لم يعد بامكانه أن يميز بين العنب « الرزاقى » والعنب « السبتى » بين التينة السوداء والحمراء ، انتقل عبء التعهد بالكرم الى عاتق الابن .

ولم يكن تعهد الكرم مقصورا على فلاحته ، وجعله بستانا خصبا مرموقا لجودة ثماره ، كما كان حاله بين يدى جده الأكبر بل شمل تخليصه من الدين أيضا . والحق يقال أن أباه قد تلقى الكرم من جده فى حالة متدهورة ، لكنه بدلا من أن يبذل جهده ليصلح من شأنه ، استبد به شغف بأشجار التين ، ومضى فى اهتمامه بزراعة التين على اختلاف أنواعه مهمــلا بذلك زراعــة العنب . وكان ينبغى أن بمضى بالقليل من النبيذ الذى ينتجه الكرم المتدهور ليبيعه فى الأسواق المألوفة التى كان يبيعه فيهــا أبوه نقدا غير انه كان يذهب الى حيث يصل الى علمه أن ثـمة فصائل جيدة من التين . وكان يدفع غاليا فى سبيل الحصــول على شتلات ولواقح ، وانصرف يغرس أشجار التين حيثما يجد موضعا حول الجدار ولم يكن الضرر كبيرا وعنــدما تكاثفت تلك الأشجار وضيقت الخناق على عرائش الكرم كان كلما عثــر على

صنف جديد يزرعه كيفمـا اتفق له حتى ازدادت تلك الأشـجار وتغشت الكرم بظلها .

وأصبح كرم سيمون العجوز مشهورا بمختلف شجر التين الذى احتفى بها « الأنيني الملوكى اللذيذ ، التارنافوتى الأسود الكبير . الاسبتسيوتى الأبيض المعسول . الكلاماتى والكيمياكى والأندريتى والأرتينى . تين كبير الحجم وآخر صغير ، أسود أو أبيض . احمر أو غامق . مستدير او بيضاوى ، بعضه يؤكل جافا والبعض يؤكل طريا أكثر من خمسين صنفا من أشجار التين ! » .

ولكن الريع الذى كانت تدره كان ضئيلا لأن أغلب أشـجار التين ، على الرغم من عناية سيمون العجوز لم تكن تؤتى ثمرا كافيا . ولم يعد كرم أبيه الهرم الأعجف يعطى شيئا يذكر بعـد اهماله واختناقه فى غمرة أشجار التين . وعندما رهن العجوز سيمون هذا الـكرم لتدبير نفقات الحج الى بيت المقدس ، فان عرائشه بدت كأنها قد توقفت عن الخصب فى غمرة يأسها .

وعندما أخذ الابن على عاتقه تبعات الدين ورعاية الـكرم لم يكن باستطاعته ان يفعل شيئا ، كان ينقصه المـال ، ولكى ينصلح حال الـكرم ويدر ربما كان يتطلب أيدى تجهد فيه .

وأطبق العمى على الأب وازداد الدين يوما بعد يوم، فان أتعاب الأطبـاء ودعيات الطب فى نهاية السنوات الأخيرة العجاف التى لم تدر حتى مايسد الفوائد ـ كل هذا جعل الدين يزداد ويستغرق كرم سيمون العجوز بأشجار التين الذائعة الصيت !

وكان الابن وزوجته ينتحيان جانبا ويتحدثان عن هذه المشكلة حديثا هامسا ، وقد انتهيا الى قرار لم يريا سبيلا الى غيره ، الا وهو أن يبيعا الـكرم وبما يتبقى يستأجران عمالا ويشاركانهمـا فى زراعة حقـل كان قد انتقـل اليهما ميراثا عن بعض أقارب الزوجة ..

ولقد كان المشترون العامرة جيوبهم بالمال المحبون للظهور كثيرين فى البلدة وعلى استعداد لشراء الكرم الذائع الصيت على ان الابن كلم واحدا من البلدة المجاورة ، رجلا من الاعيان ذوى الثراء شبعان العين سمح النفس واليد ، لأن الابن فكر أنه مع بائع من هذا القبيل يمكن ان تظل البيعة خافية على الضرير .. وجرى الاتفاق سرا وذهبا الى البندر للقيام بالاجراءات القانونية .. وانتقل كرم سيمون العجوز بأشجار تينه الذائعة الصيت الى أملاك المشترى وحوزته .

وبعد قداس الأحد أعلن القس الخبر من الهيكل وأوصى الحاضرين « باسم المسيح والعذراء » أن يظل الأمر سرا ، وبعد الظهر تداول القرويون الأمر فى السكة ثم فى المقهى ليلا ووعد الجميع بكتمانه عن الضرير .

ومنذ اليوم الأول ربض كلب المشترى فى الملك الجديد ، أما فى بيت الضرير فقد بدأت الحياة الغريبة .

كانت النيات طيبة .. لكن الى متى تدوم المغالطة ؟

***

وقد انتحى بالحفيدين جانبا وكلما فى الأمر وكلفا بما يجب عليهما نحوه وقام الابن والزوجة وقد حملت اصغر الأحفاد بين احضانها بتلقينهما الكذب . واذ كان الصغيران فى السن التى يعد فيها الكذب ميلا طبيعيا فقد طمأنا ذويهما من ناحيتهما وكانا يبتدعان من فورهما ردا ماكرا على كل سؤال عن للجد أن يوجهه اليهما . ولكن الضحك على الضرير لم يكن ، سواء بالنسبة للكبار أو الصغار ، على تلك الدرجة من السهولة وقد ثبت ذلك من الليلة الأولى .

وعندما دخل الابن البيت ألقى تحية المساء بتثاقل ، وأدار

الضرير نظرته المنطفئة فى الجميع وسأل باهتمام لم ينقطع من تلك اللحظة : « ماذا بكم ؟ .. ماذا جرى ؟ » ..

وقد اثارهم جميعا هذا السؤال لأنهم ما كانوا يتوقعون أن الصراع سيبدأ بهذه السرعة .

ـ لماذا تصمتون ؟ ! .. منذ وقت طويل وأنا أريد أن أسأل زوجة ابنى ... والأولاد .. ماذا بكم ؟ ماذا جرى يا بنى ؟!

وبغير انتظار جواب قال :

ـ لا يمكنكم ان تخفوا عنى .. قولوا لى ..

ـ الله ! .. ماذا يمكن أن يكون ؟

واضافت المرأة بدورها قائلة على عجل :

ـ ماذا يمكن ان يحدث لنا ؟ !

ولـكن النبرة المرحة التى جاهدت لـكى تدخلها على تصنعها للعجب لم تجد نفعا ، وأطرقوا واجمين ، لأن العينين الضريرتين تسمرتا عليهم كما لو كان باستطاعتهما أن تكتشفا آثار ذلك القلق الذى يحاولون اخفاءه فى تلك اللحظة !

وقال الولدان :

ـ لا شىء ! يا جدى ! لا شىء !

ثم سارعا الى القول ايضا فى مكر :

ـ يا جدى ! لقد تشاجرا ...

ـ تشاجرا منذ وقت مبكر وهذا هو السبب !

وتنهد الابن وزوجته بارتياح ! ونظرا الى ولديهما بامتنان . ولـكن بعد هنيهة هز الضرير رأسه وتمتم قائلا :

ـ كذابون ! .. كذابون ! .. أنتم كذابون .. أنتم كذابون !

ورأى الابن وزوجتـه ان من الواجب أن ينـاصرا ولديهمـا مؤكدين الكذبة .. فأخذا يسردان بحماسـة قصتهما ، قصـة شجار مبنى على سبب زائف ويتشـاكيان ويتشاحنـان ، ولكن الضرير فى نهاية هذه المهزلة البشعة عاد يتمتم قائلا : كذابون ! كذابون ..

وفجأة رفع صوته ملوحا باصبعه وقال مؤكدا :

ـ لن تضحكوا على ! لن تخفيكم عنى غشاوة عينى !

وصعدت الدماء الى وجهه واحمرت عيناه الزرقاوان وزادت حدقتاهما اتساعا وتسمرتا عليهم .

ولم يقو الابن على احتمال هذه النظرة العمياء التى اخترقت أعماقه ، وكاد يخر راكعا على ركبتيه ويصرخ : أجل ! يا أبى ! معذرة ! اغفر لى .. اغفر لى .

وانخرط الحفيد الأكبر ، فى بكاء شديد .

واشتدت ثورة الضرير وندت منه صيحات عالية : آه ! آه !

ولـكن الحفيد الثانى جرى بغتة الى جواره وقال له :

ـ جدى .. سأقول لك .. ان يانجو ارتكب غلطة .. غلطة كبيرة .. فعلة شنعاء .. اتسمعه يبكى ؟

وكان ذلك مفـاجأة ! وأصيب الأب بما يشبـه الذهول ، وانخرطت الأم فى نحيب خافت وأمعن يانجو فى بكاء أشد كمـا لو كانوا يشدونه من شعره واحنى الضرير رأسـه .

ـ أو ! .. أو ! غلطة .. غلطة كبيرة .. فعلة شنعاء ، حفيدى الأكبر ! هذا هو السبب اذن ؟ ! هذا هو السبب اذن ؟ ! بودى أن أكون قد أخطأت ياليتنى .. اعتقدت ان السبب هو الدين .. غلطتى أنا ..

ومن العينين الضريرتين انحدرت دمعتان ..!

وخطا بضع خطوات مقتربا من الولد على هدى من صوت بكائه ، وربت على رأسه قائلا :

ــ صه .. صه .. ارتكبت غلطة اذن !

ــ جدى ! اغفر لى ! سامحنى ! سامحنى !

ــ أجل ! أجل .. ولن أتحرى لأعرف .. اعتقدت وقتا طويلا ان السبب كان غلطتى أنا .. لقد اقترضت نقودا بفائدة .. استدنت .. ثم أطبق بعد ذلك المرض .

ــ أبى !

ــ أبت !

ــ أيها الجد !

ــ جـدى ..

ــ حسن ! حسن ! لن أحدثكم ولا عن غلطتى أنا .

ومضى متحسسا وجلس فى ركنه مطرق الرأس كما لو كان يصغى الى حديث يدور فى أعماقه .

ــ لا تفكر ، يا أبى ، فى الدين ..

ــ حسن ، يا بنى ! أعرف ! أخذت العبء كله على عاتقك ، ولا تريدنى ان أكلمك عنه .. أنا واثق .. ستسدد ما على الكرم من دين وترد اليه الحياة من جديد .. أنا بدورى تلقيته من أبى مدينا وفى حالة متدهورة ..

وأردف الابن قائلا :

ــ لا تفكر ، يا أبى ، فى الكرم ..

ولكنه عض شفته نادما فى اللحظة ذاتها التى نطق فيها بهذا القول لأنه سمع صوت ضميره يجلجل بين ثنايا كلامه .

ورمقته الزوجة بنظرة ذات مغزى وجرت لتضع ميخو الطفل على ركبتى الضرير فى اللحظة التى سأل فيها قائلا :

ـ لماذا ؟ لماذا ؟ !

وقد عاد يحدق بعينيه .

ومد ميخو يديه الصغيرتين جاذبا لحيته وقد تهته لأول مرة بكلمة « جـ جـ جدى ! » .

وضحك الضرير ، وضحك الجميع وانفرجت أسارير الوجوه المقطبة ، ولكن ذلك لم يستغرق الا دقيقة لأن الضرير عاود سؤاله بالانزعاج ذاته ، على ان الابن أمكنه فى هذه الأثناء أن يجد ردا :

ـ أقول لنفكر فى أولادنا لا فى الكرم ..

***

ولبضعة أيام كانت كلمة ميخو الجديدة تتردد فى كل لحظة فتملأ الجد بالسعادة وتخفف من احزان الأب والأم والأخوين اللذين شرعا منذ الليلة المفجعة يحسان ويفكران كالرجال . وكان كل منهم يخشى البقاء وحده مع الضرير ، ويسعى أن يكون دائما فى حضرة الآخرين حتى يكونوا جميعا على أهبة الاستعداد للدفاع عن سرهم على أفضل وجه .

وكم من مرة عندما رأت الأم شفتى الضرير تختلجان ظنت انهما ستنفرجان سائلتين عن الكرم .. عن إشجار التين ــ أشجار

التين التى مضى المالك الجديد فى اقتلاعها الواحدة تلو الأخرى ـ فتبادر الى هز ميخو لتوقظه من حضنها ! ثم بدأوا يصلحون حقل العنب الذى ورثته الزوجة ودخل فى روع الضرير ان العمل كان يدور فى كرم أجداده . ومضى العمل قدما وروضت الأرض المتوحشه يوما بعد يوم ، وفى الليل عند العودة من حقل العنب الجديد وقد أفعمت القلوب بالاحساس العذب الذى يحسه الأبوان المسنان اللذان عندما يفقدان فتاهما اليافع يديران أنظارهما الى صغيرهما الأخير يحدوهما الأمل ـ عند العودة من حقل العنب الجديد كانوا يحاولون جاهدين اعطاء ردود مسكنة لقلق الضرير ولعوه ، لأسئلته ونصائحه .

بالطبع لم يكن الضرير فى هذا الوقت اكثر اهتماما مما كان عليه فى الأعوام الأخرى . فمنذ ان أصيبت عيناه ولزم الدار لم يكف يوما عن ان يسأل ويسدى النصح : « خذوا بالكم من اشجار التين مثل عيونكم » . وكان يعرف المواسم والتواريخ التى يبدأ فيها كل عمل . وكان ينصح أو يسأل عسى أن يكونوا قد نسوا هذا الشىء أو ذاك : « الوقت شتاء .. احفروا الأرض من حولها وضعوا لها السماد » .. « لو رأيتم على أحداها عفنا أبيض .. اقتلعوها من جذورها وأحرقوها .. انه مرض وقد يعدى الأخريات .. طهروها من الشوائب التى تنبت حوله الجذور ومن الأغصان النهمة التى تنمو دون ان تعطى ثمارا » .. « أقبل ابريل .. قلبوا الأرض من حولها » .. « التى أصيبت بالمرض عالجوها .. لا تضعوا بترولا كثيرا ، فقط رغوة الصابون يجب ان تكون كثة وادعكوا بقطعة من الصوف الساق والأغصان والفروع » .. ولم يكن ينسى عرائش الكرم فى نصائحه : « أنها فى حاجة الى تعهدها بالرعاية طوال العام وبالتراب .. قد صرفنى الشغف بأشجار التين عن الاهتمام بها .. أما أنتم فلا تهملوها » .

وفى أول الأمر كان الابن وزوجته يجيبان على كل هذا بحماسة قائلين : « هذا فى متناول أيدينا وسنقوم به » . ولكن قلقهما أضحى الآن أمرا لا يطاق .. كان يفتك بهما فتكا .

وكان الضرير يسألهم كل ليلة ماذا فعلوا ، وكيف تبدو أشجار التين والكرم . ولكى يجيبوا اجابات صحيحة ، كانوا عند عودتهم من حقل العنب الجديد كل ليلة يقومون بجولة اخرى مارين بكرم سيمون العجوز . وكانوا يتلكأون فى الطريق ويطلون من على السور ملقين نظرات ملؤها الالم على ما بذله اجراء المشترى فى الأرض من جهد وكانت نظراتهم تضحى شريرة على الرغم منهم . وكان كلب المالك الجديد يلوى ذنبه بين فخذيه ويرمقهم من طرفى عينيه .

ومر خريف وشتاء وربيع .

وزقزق الجدجد .

وخرج الضرير الى الشرفة ووقف يستنشق الهواء بقوة فى مواجهة سفح الجبل الذى يشبه ساقى ملكة ضخمة تمددت لتجف من البلل فى الشمس . وفى الوسط كان الكرم الذى احتفظ باسمه على الدوام . وقد تحرر الآن من أشجار التين الكثيرة وتخفف من كثافتها وازدحامها فأخذ يسترد عافيته . وبدأ مثل قطعة من التطريز الغزير تحلى المئزرة الملكية . ومن حوله حقول الكرم الأخرى مثل دانتيلا حافلة بالخروم ، وفى أحد الأركان حقل الكرم الجديد الذى يزرعه الابن فى أرض الانسباء كنجم طرز بغرز متباعدة واهية ونظر الابن والزوجة واحفيدان الى الضرير بعدم ارتياح لامثيل له .

ــ كما لو كان يتوجس شرا ..

ـ كما لو كان على وشك أن يكتشف أمرأ ؛

ـ ميخو .. ميخو .. تعال فجدك يريدك ..

قال الضرير بعد صمت ودون أن يحول نظرته عن الكرم :

ـ أرى .. منذ وقت قريب لا تفارقني صورة كرمي ..

ـ ميخو ! ميخو ! أبي ، ناد ميخو ، انه يطل من حافة السطح في وضع خطر ، في وضع خطر .

وصاح الضرير :

ـ ميخو .. تعال .

وجرى ميخو الذى كانت قد اشتدت ساقاه الصغيرتان وانفك لسانه الفرير من عقاله في الآونة الأخيرة ـ جرى الى جواره وربت الضرير على شعره وعاد يقول :

ـ اجل .. أقول لكم منذ بضعة أيام اصبحت أرى كرمي .. وأضاف يقول متنهدا :

ـ في حلمي ! ..

وقال له الابن ليثبط من ايمانه في الأحلام :

ـ اه ! يا ابي ! ما الذى يمكنك أن تراه في حلمك ؟

ولكن الضرير أخـذ القول على محمل آخر وقطب جبينـه منكمشا .

وبعد قليل غمغم قائلا وقد داخل صوته النحيب :

ـ أجل .. انه لأمر مخيف .. ولكن أين تتاح لي الرؤية ، وأنا ضرير ، الا في الحلم وفي مخيلتي ! ..

ورفع رأســه فجأة ، وادار جسمه ، وانفرجت اساريره ، وأضحى محياه فى مواجهة كرمه ـ «نحو بستان سيمون العجوز» واخذ يتنســم الهواء كجواد تائه فى الظلام . وحــدقت عيناه الضريرتان كأنهما تريان بعيدا جدا ـ بعيدا جدا ...

وسأل الضرير بصوت منطفىء :

ـ الســت قبالة كرمى ؟ وتمتم قائلا دون أن ينتظــر اجابة : عجيبا .. كأنى لم أكن تلقاء كرمى .. وصاح الاحفاد الثلاثة بصوت واحد :

ـ بل أنت ، ياجدى ! أنت قبالته ..لكن الضرير قد أدارنظرته اليهم فجعلهم يصعقون . ثم وجد يانجو ، الحفيد الأكبر ، قليلا من الشجاعة وعاد يقول :

ـ اننا لانكذب عليك .. أنت قبالة كرمنا .. لكنك تنحــرف عنه .. هكذا الآن أنت قبالة الكرم .. أقسم لك ! ..

وقال الضرير :

ـ كلا ! .. كلا ! .. فى هــذا الاتجاه أرض انســبائنا .. واستدار وقد ملأه الغضب نحو ابنه وزوجته .

ـ ألم يكذب على هذا الولد السيىء !؟

ووقف الأب والأم وقد خيم عليهما الصمت :

ـ جدى ، ها هو كرمك ! .. جدى ، أنا سأدير رأسك نحو كرمك ...

وتسلق الصــغير الكرسى ومد يديه وأدار رأس الضرير نحو « كرم سيمون العجوز » وسأل الضرير بعد هنيهة :

ـ هل اجتثثت كثيرا من أشجار التين ، يا بنى ؟

وبدا صوته للابن كأنه متأكد مما بقوله ويجأر بالشكوى .

ـ ابتاه ! ..

وعاد الضرير يسأل وقد امتلأ غضبا من جراء الأجابة التى كان متأكدا أنه سيتلقاها :

ـ أكثرها ؟! ..

ـ ابتـــاه ! ..

ـ كلها ؟ ..

ـ أبى ! ..

وكان الابن على وشك أن يخر عند قدميه معترفا ، مستعفيا من الصراع ، لكن ميخو تعلق بلحية الضرير وصاح :

ـ جدى هناك شجيرات تين كثيرة فى كرمك كثيرة ... ولكن هناك أيضا كلب .. كلب ينبح .

***

ومرت بضعة أسابيع وخبا الصيف . وبدأت حبات العنب تتلألأ على العناقيد .

وقال الضرير فجأة ذات ليلة :

ـ غدا ، سأذهب معكم الى الكرم .. وضايق هــذا الجميع . وأوقعهم فى ارتباك فلم يمكنهم أن يجيبـــوا الا بكلام قليل فيه جمجمة وحيرة . ماعدا ميخو الذى هتف فرحا وصفق بيديه .

ـ اجل ، يا جدى ... اجل ، يا جدى ...

واستطرد الضرير قائلا :

ـ خذوا غطاء وافرشوه لى فى الظل .

ـ أوه .. يا أبت ... ما الذى يجعلك تريد ذلك وأنت رجل ضرير ...

وقال الحفيد الأول :

ـ انتظر قليلا حتى ينضج العنب ..و التين .. وجرى الحفيد الثانى واطبق على فم الصغير الذى كان يصبح وهو يقفز طربا :

ـ اجل يا جدى .. اجل يا جدى نذهب لنضرب الكلب .

وقطب الضرير حاجبيه ، وخيمت على وجهه غمامة ،وخرج احتجاجه من فمه هادرا :

ـ لماذا لا تريدوننى أن أجىء الى كرمى ؟ .. ايه !؟ لماذا ؟..

ووجد الابن من الأهون عليه أن ينفجر وقد أسقط فىيدهولم يعثر لنفسه على دفاع أو حجة يسند بها رفضه :

ـ لكن ... يا ابت !... هل أنت بعقلك ؟! .. تريد ، وأنت رجل ضرير ، أن تتجول فى الجبـل ! ... آه ! .. والله ! .. انك لا تطاق .. آه ! .

وتسمر الضرير أمام ابنه صامتا . لكن نظرته العمياء المتهمـة نزلت عليه كالصاعقة . ولم يكن فى طاقة هذا الأخير بعد ذلك الا أن يمضى ممعنا ــ لم يكن ثمة مخرج آخر .

ـ آه ! .. والله ! .. لقد اتعبتنا بكرمك ! .. فلتحـــرقه النيران !.. تسلمنه متدهورا .. مثقلا بالدين ..

وأومأت اليه الزوجة : « اسكت .. أشفق عليه .. لا تقل له ... ستقضى عليه ... » وخرج الزوج وقد صفق البـــاب الخارجى وراءه فى عنف .

وانكمش الضرير ومضى يجلس فى ركنه منزويا . وذهب ميخو الى جواره وشب على اطراف قدميه ورفع قامته ، واشرأب عنقه، ومط شفتيه وقال له بصوت منغم ملاطفا كما يلاطفون الأطفـــال الذين يحتاجون الى مواساة :

ـ هون عليك ... هون عليك ... يا جـــدى ... يا جدى الصغير ، اذا شئت ... ســـآخذك أنا من يدك وأذهب بك الى كرمك ...

وتحركت ابتسامة مريرة فى وجه الضرير المبتئس المقطب من فرط الشك والخجل . وانتظر فى صمت عـودة ابنه ســاعات طويلة ، لكن زوجة الابن كانت ترسل كل قليل الى المقهى وتوصيه الا يأتى بعد ، لأن أباه مازال يجلس فى انتظاره . وعندما انتصف الليـــل وأصبحت عودته الى بيته متعينة ، دخل حزينا يسب ويلعن « نزق الشيوخ » حتى لايعطى الضرير وقتا يتكلم فيه وحتى يلزمه حده الى الأبد .

***

وأعقبت ذلك عدة أيام مليئة بالأسى الصامت .

وقبع الكبار والصغار فى قوقعة من الاصرار والعنـــاد للذود عن سرهم .

ولم يعد الضرير يفتح فمه ليسألهم أو ليسرى النصح لهم فى شأن كرمه وشجرات تينه بل ولم يعد يتكلم عن أى شىء آخر قط . وكان الشك يغلى فى أعماقه ولكنه لم يعد يستدرجهم فى الحديث ولا يسترق السمع خلف الباب كان يفكر فحسب .. ويفـكر ..

وكان الصغار والكبار يحسون بالعملية المروعة التى تدور فى فكره ساعات صمته الطويلة المظلمة ولكنهم ماكانوا يجسرون على أن

يقولوا له : « فيم تفكر يا ابتاه ؟ » « فيم نفكر يا جداه ؟ » ولا ان يقدموا على انقاذه هنيهة من لحظاته الحزينة لأنهم كانوا يخشون أن يبدأ الصراع من جديد . ولم يعد ميخو الطفل الذى كان يدخل السلوى على قلبه فى أول الأمر يقترب منه الآن ، لأن اخويه كانا يخيفانه بأن الكلب سيأكل الجد لو أخذه الى الكرم .

وذات ليلة سمعوه يتمتم :

ــ ... أجل .!.. يختبئون من ضرير بوسعه أن يقــول لهم ما هى الساعة فى الليل والنهار ويدرك متى يميل القمر والشمس الى الرحيل فى غمار النجوم او السحب !....

وأومأ الابن قائلا :

ــ صه ! .. لا يتكلمن أحد ...

غرق الضرير فى صمته من جديد .

ومنذ أيام قليلة اضحى الضرير متأكدا من ان كرمه قد بيع . ولم يكن يجرؤ على الحديث عن هذا الأمر لأنه كان يحس بانه مذنب. وخشى أن يجابه ابنه . كان يشفق على ابنه وعلى نفسه . ولم يكن يتكلم عن لوعته لكنه كان يريد تعزية .

ــ أحس الموت فى أعماقى ! .. أحس الموت فى أعماقى ! .. يا أولادى ! .. تحدثوا الى ... ادخلوا الدفء على قلبي !..

وقالت له زوجة ابنه :

ــ لا تمعن فى تعذيبنا .

ــ آه !

ـ انا فى غاية من الضيق .. يا ابى !.. الى الحد الذى لو امسكت بانفى ... لطلعت روحى ..

ـ حسن ، يا بنى ! .. اعرف .. أنا لا اسألك عن شىء ... فقط اطلب منك عزاء ...

ـ عندى عنب زرعته حديثا فى كرم انسبائى .. وأتطلع اليه برجاء ... لم يعد علينا دين .. فلنقل .. اذن ... « الحمد لك يارب » ..

وانعكس ما حدث فى أعماق الضرير بكل جلاء على وجههحتى ان الابن جزع وعدل مرة أخرى عن قراره :

ـ ثم ... كرمك يسير على ما يرام فلا تدع الهواجس تداخلك .

وحدث فى الوجه التعس تغير كما لو كان يستجدى الكذب

ودفعت زوجة الابن ميخو الى احضان الضرير .

ـ قل لجدك أن كرمه هو احسن بستان فى القرية ... قل له انه مازال مليئا بأشجار التين وألا يدع الهواجس تداخل عقله.

ـ أجل ، يا جدى الصغير ... ولكن هناك أيضا كلب لايدعنا ندخل ... وسارع الولد الثانى الى القول :

ـ بالطبع لا يدعك ... لأنك تقطف العنب الذى لم ينضج ... اليس هذا هو السبب ؟!....

وادرك الطفل انه كان من الضرورى أن يقول « نعم » ، وأطرق رأسه وقال كذبته الأولى ، بغير ما براعة كبيرة ، لكن الضريرتقبلها لإنه أصبح الآن يطلب الكذب ليجد فيه عزاء ...

***

ومضت بضعة أيام أخرى .

ووصل الضرير الى درجة من الانهيار حتى ان لوعته على الكرم استبدت بفكره . كيف سينجح أولاده فى أن يواصلوا الكتمان والاعتقاد بأنه مازال مخدوعا ، عندما سينضج العنب والتين ولن تأتى السلال مليئة الى البيت ولن يكون ثمة قطاف ؟! وذات ليلة غمر الضرير احساس غريب مبهم جعله يعتقد أنه لو دخل يتمشى فى كرمه ساعة يكون المشترى متغيبا عنه فان ذلك سيلهيه عن الحقيقة الى الحد الذى يمده بالقدرة على ان يتماسك زمنا آخر من الوقت قبل ان يستسلم للوعته من جديد !! وكان اليوم التالى يوم أحد وفكر فى ان بامكانه والجميع بالكنيسة والسكك وبساتين الكرم خالية أن يوقظ ميخو وأن يذكره بوعده . ووجد الساعة الملائمة وكلمه غير أن الطفل وقد كان أخواه قد ملآه رعبا ـ من ان الكلب سيأكل الجد ـ نكص عن وعده وانخرط فى البكاء .

واعتزم الضرير أن يذهب وحده متخبطا .. وما أن أدرك أن أهل الدار قد راحوا فى النوم خرج الى الفناء ... خرج الى الطريق ...

ولم يلق عناء فى تلمس الطريق على الرغم من انه لم يقطعه منذ أربع سنوات وكانت السيول فى أربعة أشتية قد أفسدت الطرقات ودحرجت الحجارة فى الأزقة ، ولكن الاحساس الذى دفعه الى الذهاب للكرم المباع كان قد استحوذ عليه . وعندما نبح الكلب الغريب أول نباحه سقط الضرير ميتا .

ايلياس ڤينيزيس

ولاية ڤرجينيا

كانت حوائط الكوخ جرداء • نكست المرأة رأسها • ثم قالت للأخرى المطرقة الى الأرض :

ـ أليس ثمة ما يمكن عمله ؟ أقول ألا يمكن تأجيل السفر ، اذن ؟ ..

وأجابت الأخرى :

ـ الآن ؟ الآن ، وقد جاء الفجر ، وحان رحيلى ؟

ـ لاجدوى ، اذن ؟ ليس ثمة ما يمكن عمله ؟

ـ أقول ، لاجدوى • لاجدوى •

كان الليل يلفهما ـ يلف جسديهما العجـــوزين ، كما يلف الجدران حولهما • ومن تحتهما وعلى بعد بضعة أمتار تعالى هدير البحر . كان الهدير يترامى على الشاطىء ، على الأكواخ الفقيرة فى قرية الصيادين الصغيرة • الريح قوية ، وسحابة الرمل المنبثقة من الأرض الكليلةمثل ضباب معتم تغلف الأكواخ، وتلف أشجار الكافور الباسقة . كل شىء فى الليل مبهم كما لو كان يسبح فى محيط قدرى ، المحيط الذى كل ما فيه محدد ومحتوم .

انزوت احدى المرأتين وانطوت على نفسها وحذت الأخـــرى حذوها • كانتـــا من الشرق ، وهذه الأكـــواخ هنا قرية للاجئين من « فوكيس » . كانت المرأة الثانية «السيدة ستاماتولا» ستسافر صبيحة اليوم التالى فى رحلتها البعيدة عبـر المحيط ، فأخذت تسترجع أمام ناظريها من جديد كل الذكريات واحدة تلو الأخرى . منذ ثلاثين عاما وصلت مع ابنتها وقومها الى هذه البقعة من شاطىء أتيكى مطرودين من وطنهم • وفى العام ذاته جاء من بـــلاد ما وراء المحيط ، من فرجينيا احدى ولايات العالم الجديد ـ جاء رجل ذو سلسلة ذهبية ، وأسنان ذهبية ، طلب الابنة زوجة له ، وأخذها وغابا وراء المحيط • ثم أخذت تفد من وقت الى آخر رسائل عبر المحيط ، مكاتيب من البنيـــة ، جالبة الى الكوخ المعتم فى أتيكى احساسا سحريا ، وأطيافا من الأساطير . كانت الرسائل كلهـــا تنتهى بالكلمات الآتية : « أماه ، سنأتى بك أنت أيضا الى هنـــا ، الى ولاية فيرجينيا » « أماه ،ستأتين الى هنا، الى ولاية فيرجينيا» .

فرجينيا ، فرجينيا . ترى ماذا يكون هذا الاسم الغريب؟ كان ثمة اسم آخر سحرى ، رؤيا أخرى تداعب خيالها وطنهـــا الضائع كان اسمه « فوكيس » وهو ما كان يتردد على لسانها • وهو ما كانت تردده أيضا نسوة الأكواخ كلهن عندما كن ينزلن للجلوس عـــلى الشاطىء فى المساء ويتبادلن الذكريات ، وتحمل الأمواج خفقات قلوبهن فى رحلة بعيدة •

ترى ماذا تكون فرجينيا هذه ؟ فوكيس ، فرجينيا ، اتيكى • أين يستقر المقام فى النهاية بالمخلوق المسكين الذى اقتلعت جذوره من أرضها ؟ كلما مرت السنين كانت اللاجئـــات الأخـــريات يزددن رسوخا فى تربة أتيـــكى . كن يعملن على أن تتوطد وشائجهن بتلك الأرض • ينجبن عليها أولادا جددا ، ويدفن فيها موتاهن • وهكـــذا أخذن يتأقلمن بالأرض الجديدة ، ماعدا سيدة الأكواخ «السيدة ستاماتولا» كل شىء غير مؤكد بالنسبة لها . فوكيس التى

مضت تبتعد وتضحى حلما • أرض أتيكى المحيطة بها والتى سوف تغادرها • فرجينيا الى حيث الصوت يدعوها • وكان الصوت يهتف بلا انقطاع •

« اطمئنى يا أماه ، اننا نواصل الاجراءات اللازمة لاحضارك ، فى ولاية فرجينيا . كل ما هناك أن الأمر عسير . جمهور غفير يسعى للمجىء الى هنا ،مما يزيد من صعوبة السفر • حجزنا مـــكانا • وعندما سيحين دورنا ستأتين » •

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت الكوارث والاحتـلال والدمار • وتغير كل شىء • فرجينيا ، فوكيس ، أتيـــكى • كلها تغيرت فى محيط القدر : « كل ما هو مكتوب سيكون • كل ما هو مكتوب فليجىء • »

كانت مواطناتها تقلن لها :

ـ لعلك نسيت البلد البعيد ؟ ليس ثمة سفر الى امريكا ؟

وكانت تجيبهن :

ـ ماذا تقلن ؟ لا بد أن اسافر يوما ما ، عندما يجىء السلام الى العالم • من المؤكد اننى سأذهب الى حيث تقول ابنتى ، الى ولاية فرجينيا •

لكن ما من شك أنها لم تعد تؤمن فى قرارة نفسها . لم تعد تؤمن بدورها •

***

وهاهو الموعود جاء • هاهو قد جاء الآن وقـــد أحنت السنين كاهل المرأة •ثلاثون عاما مضت منذ أن فكرت فى هذه الرحلة أول مرة • هاهى الاشارة قد جاءت ، الاشارة المؤذنة باجتياز المحيط ، وكم تأخر مجيئها • جاراتها كلهن ، اللاتى ذرفن الدمع معها على شاطىء أتيكى الموحش ، قد رحلن تباعا فى الرحلة الأخرى : وهناك خلف التل الصغير ، فى مدفن القرية المقفر لقين الراحة ، وكن فى انتظارها . لم يبق من الصحبة سوى اثنتين . السيدةيانولاوهى،

وهاهى تشذ الآن عن النظام ، عن الايقاع الرتيب · التل الصغير على بعد بضع خطوات من كوخها ، وهى تعرف انه لم يبق لها الا أن تحمل الى هناك فى القريب العاجل الى جوار صحبتها لترتاح الى الأبد · لكن فات الأوان ، وهاهى الآن تضطر الى أن تغير خط سيرها وترحل الى تلك الأرض البعيدة ، ولاية فرجينيا ، لتتلقاها تربتها ، فهى تعرف ان هذه الرحلة التى تتأهب للقيام بها رحلة الى حيث ســـتوارى التراب ·

أخذت صورة مارى جرجس الفضية التى جلبتها معهامن الشرق وذهبت بها الى كنيسة القرية الصغيرة وصلت عليها فهى ستصطحبها معها . ثم مضت تودع أكواخ القرية كوخا كوخا . عانقت قاطنيها جميعا ، ورسمت علامة الصليب على جبين الأولاد الصغار ، ومنحتهم بركتها · كانت ساعة عارمة موحشة ، ساعة الموت الدانى ، ساعة الوداع والوصايا الأخيرة · كان شعور الجميع نحوها كما لوكانوا يقبلونها قبيل أن يضمها تراب تلهم بين ذراعيه · ثم وزعت السيدة ستاما تولا محتويات كوخها على أقرب جيرانها ، ونصـــحتهم ألا يتخاصموا ، فما الذى يكسبونه من الخصام ؟ وحرقت اغصانا من كرمة ، وصنعت منها بخورا لمبخرتها ، واشترت أقة من اللبان الأبيض لتأخذه معها · كانت تقول ان هذه الاشـــياء لن تجدها فى أرض الغربة ، هناك فى ولاية فرجينيا .

ولما كان كل شىء قد أعد ، ولم يعد سوى انتظار السفر ، فقد خلت العجوزان الى بعضهما الليلة الأخيرة . كانتا آخر من بقى من القرية · تجاذبت السيدة يانولا والسيدة ستاماتولا اطراف الحديث· تحدثتا وتحدثتا ثم سكتتا . كان الأمر أشبه بمسرحية جنائزية. وسهرت كل منهما الى جوار الأخرى ·

ستشرق الشمس بعد قليل · وقالت العجوز الأولى ، كما لو كانت قد اكتشفت شيئا جديدا :

ــ ها قد طلع الفجر ·

وأجابت الأخرى :

ـ أجـــل ٠

وبذلت تلك التي ستبقى محاولة أخـــيرة ، وان كانت تعرف انها تحاول عبثا :

ـ بالله أين ستذهبين يا ستاماتولا ؟ ما الجدوى من القيام بهذه الرحلة ؟ كيف ستحتملين التربة فى أرض الغربة ؟

خيم الصمت برهة ٠ ثم أردفت :

ـ أقول كانوا سيدفنوننا جنبا الى جنب مع سائر رفيقاتنا ، ولن نكون فى عزلة ٠

وخيم الصمت من جديد ٠ ثم استطردت تقول :

ـ هذه التربة أصبحنا نعرفها ٠ لن تكون جد ثقيلة علينا ، لكن من ادراك ما التربة التى تذهبين اليها ؟

وتسلل الموت بينهما ٠ تردد على لسانهما بلا وجل ، وشاع حديثه مثلما تتردد أمور الدنيا القوية البسيطة على ألسنة العامة٠

وقالت الأخرى ، السيدة ستاماتولا :

ـ صائب قولك ٠ من أدرانى ما حال التربة الأخرى ؟ لـكنك تعرفين بدورك ، لم يعد بالامكان أن يتغير شىء ٠ هذا ما قلته أيضا الى ابن عمنا فرانسيسكو ٠

كان العجوز فرانسيسكو ـ وهو ابن عم بعيد ـ قد جاء اليها أمس وقال لها :

ـ يا ابنة العم ، مازلت أقول لك فى هذه اللحظة الأخيرة غيرى رأيك . اعدلى عن السفر ، فما زالت الكلمة لك .

ـ أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

ـ أقول ابقى لتموتى معنا فى هذه التربة التى الفناها ٠ ما شأنك أنت بالسفر ؟ الكلمة لك ٠

ـ أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

نشبت حرب جديدة فى ذلك العالم البعيد • يقولون فى كوريا• ما شأنك أنت بعبور البحر الكبير وقد شبت الحرب من جديد ؟ ابقى لتموتى بيننا •

كان يلقى لها بخشبة النجاة عالما أن البشر فى حاجة الى أن يتشبثوا بشيء على الدوام •

لكن ، كلا ، لم يكن بالامكان العدول الآن ، كل شيء قضى على نحو لا رجعة فيه : الثلاثون سنة التى انتظرت الرحلة طوالها ، ابنتها فى فرجينيا ، التصريح ، التذكرة .

ـ لا مفر ، يا يانولا • لا مفر الآن •

ـ كما ترين ، يا ستاماتولا •

وخيم عليهما الصمت ، وأشرق الفجر . ارتسمت التــلال وردية ، واكتست بلون ملائكى . بعد قليل ستمر سيارة الخط التى ستقل السيد ستاماتولا ، وتنزل بها الى الميناء الكبير .

ـ هيه ، حان الوقت •

ـ حان الوقت •

تطلعت العجوز الى تلال أتيكى ، وطنها الثانى ، وهى على أهبة الرحيل الى الوطن الثالث ، والأخير • عندئذ عرفت أن المرء قد تقتلع جذوره مرة واحدة ، فاذا اقتلعت مرتين فهذا أمر لا يطاق . نظرت الى التــلال وراتها هادئة وديعة . وأخذت تبكى بصــوت خفيض ، لأنه بعد قليل ستختفى التلال الى الأبد •

ايلياس ڤينيزيس

طائر
مقتول

نحن ابان الحرب العالميـة ، وقت أن وطىء البرابرة أرضنا . كانوا يخربون البلاد ، ويقتلون الناس ، رجالا ونساء ، وشيوخا وصـبيانا ، حتى يحطموا ايمانهم بالعدل والحـرية . ولكن اهل اليونان لم يستسلموا . كانوا يقولون مثل اسـلافهم من ربابنة البحار ورعاة اليابسـة : « ما الجدوى أن تعيش فى الذل والعبودية؟ الحرية سـاعة خير من أن تحيا العمر كله عبدا .» ولهذا كانوا يوقعـون الضربات بالبرابرة على الجبـال وفى الحضر ، مؤمنين بالانسان وبالوطن .

فى تلك السنين ، كانت تعيش فى اليونان أيضـا بنت صغيرة هى ابنة الحرب لأنها ولدت اليوم ذاته الذى أعلنت فيه الحـــرب العالمية عام ١٩٣٩ ، تلك الحرب التى بدأت مسيرتها من بعيد ، وبعد أن عبرت بلادا وبلادا ، مخلفة فيها الخراب ، وصلت الى وطننا أيضـا . كانت البنت اسمها « أناه » . شعرها فى لون سـنابل القمح الناضج ، وعيناها فى لون أمنا البحر . ولما كانت تعيش فى سنوات ضارية يضرب فيها الناس بعضهم بعضا كالمجانين ، ويمص الواحد منهم دماء الآخر فقد اجتهد والد أناه ووالدتها أن

يبسطا عليها كل حماية حتى يجنباها أن تعرف مدى ما يمكن أن يتمادى اليه البشر . لهذا سعيا أن يزيدا من الفتها بالطبيعة ، بالشجر الأخضر ، بالطير السارح ، بالسمك واعشاب البحر . وهكذا تعلمت أناه ألف حكاية وحكاية عن الماء وعن التربة . ومع الوقت عرفت كيف تحس كما لو كانت شجيرة أو حصاة صغيرة .

وفى المنتزه الذى كان أبواها يصطحبانها اليه لم يكن ثمة أشجار كبيرة ، لأن الحديقة كانت حديثة مثلها . ولهذا لم تجد أناه عناء : تفاهمت على خير وجه مع الشجيرات التى كانت قاماتها فى مثل طولها . كانت تحتضن الأغصان ، وترقد فى ظلها وتحكى لها عن أحلامها ، فتقول : « عندما أصبح بدورى شجرة كبيرة ، لا تغضبن منى لن أبقى هنا معكن . أريد أن أرى ماذا وراء البحر الذى تسبح فيه السفن . سأصبح بدورى مركبا وأسافر لاتغضبن منى . »

وكانت الأشجار تقول لها « ما شأنك أن تعرفى ماذا فى البلاد التى وراء البحر ؟ ماذا تريدين أن تعرفى عن الديار الغريبة ؟ »

لكن أناه كانت جد صغيرة ، وكان كل شىء معتما فى داخلها ، فلم تكن لتعرف حتى هى ماذا تريد بالضبط . شىء واحد كان مؤكدا فحسب هو أنها كانت تريد أن تعرف وهذا الذى كانت تريد أن تعرفه ظل بالنسبة لها غامضا مجهولا وفى غير مقدورها : فعن الانسان كانت تريد أن تعرف .

وجاء أيضا آنذاك ، فى سنى الاحتلال والعبودية ، يوم اليونان الكبير ، الخامس والعشرون من مارس الذى يحتفل أهل اليونان فيه بذكرى الحرية . فى عشية ذلك اليوم اكتست الأم بمسحة جادة . أخذت ابنتها من يدها ، وانتحيتا جانبا ، وقالت لها :

ـ أناه ، سأقص عليك الآن حكاية مختلفة جدا عن كل ما سمعته من قبل .

فتحت أناه عينيها الزرقاوين ، ونظرت وجلة الى أمها التى بدت هيأنها جد غريبة ، وسألتها :

ــ ما الخطب ، ياأماه ؟

ــ اسمعى ، يا ابنتى .

وحدثتها عن حكاية غريبة،واحدة من حكايات اليونان العديدة فلقد جاء ــ على حد قولها ــ الى أرضنا ذات مرة من الشرق غزاة لا حصر لهم ، حطوا رحالهم بها واشاعوا فيها الخراب . سنين تلو سنين ،لفظ أهل اليونان زفراتهم من القهر الجاثم على صدورهم حتى جاءيوم رسموا فيه علامة الصليب وقبلوا صورة مريم أم المسيح ، وقالوا : أيتها العذراء ، لم نعد نحتمل أكثر من ذلك ، سنثور . » كان هؤلاء حفنة صغيرة ،وكان المحتلون كثيرين مثل سنابل الحقل ، مثل النجوم فى السماء « لكن ما من سبيل ، سنقوم » هذا ما قاله أهل اليونان :وخرجوا الى الجبال.وعندئذ هدم المحتلون القرى ، وطاردوا الشيوخ والنساء والأطفال ، وأعملوا فيهم التقتيل . وحتى لا تسقط النساء فى أيديهم كن يأخذن أطفالهن فى أحضانهن ، يقبلن بعضهن بعضا ، ثم يلقين بأنفسهم من على الجبال ويمتن . أما أزواجهن الذين استبدت بهم الوحشة فقد مضوا يهيمون عراة جياعا من وهاد الى وهاد ومن بحور الى بحور يخوضون المعارك ويقاتلون . وفى عيونهم وميض الايمان ، وفى قلوبهم اليقين بأن الحق فى جانبهم ، وان يوم خلاصهم آت . ولم يخب ظنهم وأتى ذلك اليوم . رحل البرابرة مطرودين من أرضنا ، ونبت الزرع من جديد ، وجاء أطفال جدد محل أولئك الذين اندثروا .

أصغت اناه الى الحكاية مفتوحة العينين . وسألت :

ــ ومن كان هؤلاء ؟

وقالت لها أمها :

ـ كانوا جدك وجدتك . كانوا أجداد وجدات كل الأولادالذين يذهبون معك الى المنتزه . هؤلاء كانوا .

ولكي تزيدها ايضاحا ، اردفت تقول :

ـ اتذكرين التماثيل البيضاء التى صفت هناك ، فى المنتزه ؟

كانت اناه تذكرها جيدا ، فكثيرا ما ذهبوا بها الى هناك ،وكانت تعجب دائما من السكينة المخيمة على تلك الشخوص ، التى أدت واجبها وانقطعت صلتها بالحياة .

ـ انى اذكرها ، يا اماه .

وقالت الأم :

ـ هؤلاء كانوا . غدا ، سنجمع بعض الزهور نحملها اليهم .. مثل غد بدأوا حركتهم لطرد الناس الأشرار من أرضنا .

اشرق الغد،الخامس والعشرون من مارس سنة ١٩٤٣ . أخذت والدة أناه قليلا من الزهور صنعت منه اكليلا وضعته فى يد ابنتها، ومضيتا معا الى مكان الأبطال . لكن مثل والدة اناه استيقظ الآلاف فى ذلك الصباح ذاته ، جماهير غفيرة ، امهات اليونان وفتياتها وفتيانها ، يريدون جميعا أن يحملوا بدورهم زهورا الى الذين جاهدوا فى سبيل الحرية ، ويضعوا الأكاليل على هاماتهم . انهم يتحركون مثل الأمواج المتلاحقة متجهين الى المنتزه . على أن الأم وابنتها اناه لا تدريان بالموج المقبل ، وتسيران فى هدوء . ويالها من سكينة تلك التى تحيط بهما ! من أغصان الشجر الجرداء تتناثر الزهور . انه الربيع .. استدارت اناه وامها عند المنحنى وواصلتا سيرهما فى ممشى الحديقة صامتتين ، تتأمل الفتاة معالم الربيع ، وتتطلع المرأة الى السماء الصافية من السحب. وفجأة سمعتا الهدير بدا أول الأمر مبهما مثل صوت البحر البعيد عندما تلاطمه العاصفة، ثم أصبح الصوت أكثر وضوحا ، وأمكن للاذن ان تميز فى خضمه

بين أصوات الرجال وأصوات الفتيـــات . كلهم يغنون للحرية ، وينشدون تلك الأغنية القديمة التى تقول ان الصمت كان مخيمـا على كل شيء ، والكف يضرب الكف تعبيرا عن الأسى .

الأصوات قد خلت من الفرحة ، فهى زفرة شعب وشـجنه وايمـــانه .

وقفت الصغيرة اناه وأمها على قمة الساحة التى صفت فيهـا التماثيل ، وقد أمسكت البنية بزهورها ، بأكليلها الصغير ،وتعلقت عيناها بالجموع النائحة المقبلة . كان يمشى فى المقدمة قرابة الثلاثين من الفتية والفتيات . يمسكون بأكاليلهم ويغنون . رأتهم الأشجار من حولهم . سمعتهم الزهور التى تفتحت على أغصـــــانها لمقـدم الربيع ، وسمعتهم أيضا الطيور التى بعثرها الخوف فتطايرت هنا وهناك . كما سمعهم الألمان المتربصون بهم وانقضوا عليهم من خلف الحديقة وأمطروا الشعب وابلا من قذائفهم الملعونة .

استولى على الناس فزع مهول . ولولت النساء وتعالى الصراخ وجرين يختبئن وراء الأشجار العجفاء طلبا للنجاة . امتلأ المكان بالضجيج . وصفر الرصاص وهو يمزق الهواء . أخذت الأم التى استبد بها الذعر ابنتها اناه بين ذراعيها لتحميها بكل جسدها .. وشرعت تجرى بحثا عن شجرة تختبىء وراءها . لم تكن اناه تبكى . وقفت تائهة . اتسعت عيناها الزرقاوان من شدة الخوف والذهول وظلت مقلتا اناه الصغيرة مضيئتين حائرتين لاتفهمان مما يجـرى حولها شيئا . وبعينيها المفتوحتين ، المفتوحتين تماما ، رأت من خلال ضباب الخوف والموت : الفتيان والفتيات ممسكين بأكاليلهم يلزمون الساحة ، ويتسلقون التماثيل البيضاء بحركات ماضية ، ويضعون أكاليلهم على هاماتها ، ثم يجرون منصرفين. لكن الجميع لم ينصرفوا. ثلاثة منهم لم يتسن لهم ذلك . رأتهم اناه يسقطون صرعى برصاص البنادق ، كما لو كانوا شجرا ، شجرا فتيا ، يهوى . بقى الاكليل

يتدلى أيضا فى يدى اناه لا أحد يسأل فيه ، لكنه فى اندفاع الفتيان انزلق من أصابعها النحيلة ، وسقط .

فى صباح اليوم التالى سادت السكينة على المنتزه تماما . عاد الأولاد الى الخروج بعرباتهم ، وهم يصيحون ويضحكون ويلعبون. جذبت اناه أمهامن يدها . وكل كيانها يتوسل :

ـ هناك ، يا أماه . لنذهب الى هناك .

انها صموت . وانه لشىء مخيف أن تلزم صبية صغيرة صمتا مريرا الى هذا الحد ، حافلا بالتساؤلات : لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وتصل اناه الى التماثيل البيضاء . اكاليل الزهور التى جلبها الفتيان والفتيات مطاردين جائعين ألقى بها الألمان على الأرض وداسوها بالاقدام وتقدمت أناه من تمثال الى تمثال ، ثم تسمرت فى مكانها فجأة . رأت على الأرض دماء لم تكن جفت بعد ، دماء غزيرة . ولقد شردت بعض الزهور المقتلعة من اكاليلها التى وطأتها الاقدام ، وراحت نحو الدماء وارتوت بدماء الفتيان الذين لقوا حتفهم . وتذكر أناه جيدا اللحظة التى رأتهم فيها يسقطون . كانوا ـ على حد قولها مثل شجر يهوى .

أناه صامته بينما تغالب أمها دموعها . همت أناه أن تتقدم ، وعندئذ وقعت عيناها على شىء هناك . وهمهمت :

ـ أنه طائر !

انحنت . كان طائرا ، عصفورا صغيرا . وكان مقتولا . عجبا ، كيف أمكن للرصاصة أن تصيبه ، وهو جد ضئيل الحجم الى هذا الحد ؟ لقد مزقته اربا اربا . لابد أن الأمر قد حدث أمس .

وتناولت أناه الطائر ووضعته فى راحتها ، ثم مضت بضع خطوات الى حيث التراب محروث . وجلست .ودون أن تلقى بالا

الى أن توبها قد يتسخ وضعت الطائر على الأرض ثم شرعت تحفر بيديها حفرة صغيرة.وعندما رأتأن الحفرة قد أصبحت عميقة بما فيه الكفاية ، أخذت العصفور ودفنته ، وهالت عليه التراب . ثم قطفت زهورا برية صــفراء نابتة على مقربة ووضعتها على الحفرة الصغيرة .

وعندما فرغت أناه من ذلك أنخرطت فى نحيب عميق لا آخر له . ولم تكن أناه هى التى تبكى وحدها ، بل كان يبكى معها الأولاد فى العالم جميعا .

كلا ، لم تعد أناه تريد أن تسافر ، عندما تكبر ، الى البلد وراء البحر . لم تعد تريد أن تعرف . لقد عرفت وهى جـد صغيرة ، الكثير عن البشر .

ايلياس ڤينيزيس

أحلام
للغد

في اليوم السابق على اليوم الكبير ، وكان النهار يقترب من اخرياته والليل يرخى سدوله ، قرارا أن يستريحا قليلا ، وقـــد انجزا ما كلفتهما به الجماعة التى ينتميان اليها.

قالت الفتاة : « لنذهب الى مكان به شـــجر ، لننعم ببعض النسمات الرطيبة . »

ذهبا الى المتنزه العام ، وجلســا على أريكة . كانت النجوم قد ظهرت فى السماء . والليلة صافية الأديم . لم يكن احد غيرهما هناك . وظلا صامتين فترة من الوقت .

وفى لحظة سألها : « هل ... هل تخافين من شيء ؟ »

امسكت بيده ، وشدت عليها .

قالت بصوت ملؤه الثبات واليقين : « كلا ، لا اخشى شيئا ».

قال الفتى بعد هنيهة : « سيضرب الالمان بشدة غدا .تأكدى من ذلك . »

ــ « انى لمتأكدة » .

مضت برهة صمت أخرى .

قال الفتى بشجن : « ستأتى أيام طيبة ، بالنسبة لنا أيضا . وعندئذ سيكون بمقدورنا أن نهتم بسعادتنا ، بسعادتك وسعادتى ... »

ثم تحدثا عن أحلامهما ، وعن المستقبل . كانا قد تعارفا منذ بضعة أشهر ، فى ساعة من الساعات العصيبة . تواجدا جنبا الى جنب فى مسيرة شعبية عبر شوارع أثينا . كانت الفتاة تمشى فى المقدمة ، وقد تطاير شعرها الأسود فى مهب الريح ، كما تطايرت طيات العلم الخفاق الذى حملته بين يديها . وفجأة برزت من نافذة عالية فوهة حديدية لمسدس أحكم أحد الألمان تصويبه الى الهدف ، الى ذات الشعر المتطاير حاملة العلم . لكن الفتى بادر الى جذبها للوراء قبل ثوان قصار من انطلاق الرصاصة مدوية فى الأرجاء . ثم هرول الموكب الى شارع جانبى وانطلق الى مقصده من طريق آخر ، وعلى رأسه دائما اليونانية ذات الشعر المتطاير فى الهواء .

هكذا تعارفا . كانت تدرس الكيمياء ، أما هو فكان يدرس الهندسة . وكانا يرسمان احلاما للغد . عندما سيعود السلام الى البشر المعذبين ، عندما لن تطأ أرض بلادنا الجرداء قدم غاصب معتد ، عندما سيصبح للناس الحق فى الحرية من جديد ، ويكونا قد اديا بدورهما دينهما نحو الوطن ، سيشرعان فى بناء سعادتهما الخاصة . وكم سيكون ذلك جميلا ! سيحصل كل منهما على شهادته ، وسيكون فى مقدورهما ان يتزوجا . سينجبان ولدا أسود الشعر مثل أمه . سيعلمانه منذ الصغر أن يعشق كرامة الانسان وحريته بل واذا اقتضى الأمر سيعلمانه أن يكره كل ما من الضرورى أن يكرهه . لأنهما ارادا أن يجعلا من هذا الولد رجلا حقا يقول لا عندما يكون من الواجب أن يتخذ هذا القرار . لن يكون غصب وجور ، لن تراق الدماء هدرا ، لن يكون ظلم يغرق الأرض .

لن يكون اولاد ساهمو النظرات ، أدركتهم الشـــيخوخة قبـل أوانها ، يتطلعون الى النجوم بعيون حزينة .

هكذا سيكون ابنهما ، رجلا بحق .

أخذ يدها من جديد ، وربت عليها ملاطفا .

قال لها :

ــ ستأتى ... لاشك فى ذلك ... ستأتى الأيام الحـــلوة قريبا .

اطلت عليهما النجوم . انحنت الفتاة وقبلت جبينه ، كمـــا لو كانت تريد أن تطبع عليها بشفتيها الكلمة الكبيرة : « ستأتى » .

***

مضى شعب اليونان يزفر تحت عبودية الألمان والطليان ،وكانت عبودية لا تحتمل . اعملوا استبدادهم فى البلد الفقير . خربوا . احرقوا أكواخ القرى . قتلوا نساء واطفالا وشيوخا . ثم جاءت المجاعة . استولت قوات الاحتلال على القليل الذى تثمره الأرض، انتزعوا الخبز الأسود من أفواه الأطفال والأمهات ، وجاءت المجاعة . فى المدن والقرى كان الناس يسقطون على الأرض ويموتون . كان الأطفال يلفظون انفاسهم الأخيرة على صدور امهاتهم اللاتى نضبت أثداؤهن ، وبدلا من ان تحلم عيونهم الصغيرة بالملائكة كانت تغفـو رويدا رويدا ، وتنطفىء شاكية . على أن الشعب لم يركع رغم كل ذلك . كان يجمع ما بقى له من قوة ضئيلة ، ويخرج الى الشوارع صائحا مطالبا بالحرية .

كما وفدت أنباء بأن غاصبا جديدا وطأت قدمه أرض الوطن من الغرب . وأعمل التخريب والتقتيل اينما حل.كز الشعب الجائع

على أسنانه ، وقرر أن يخرج الى الشـــوارع من جديد ويصرخ بالحرية والعدالة.

***

في أثينا ، تسير الجموع في الشوارع الكبيرة ، صـــامتة ، واجمة ، كما لو كانت تتنزه في الشمس تتسلى بمشاهدة التماثيل. ما من شيء ينم عن أن أمرا سيحدث أو أن الاعداد له على قـــدم وساق . ومع ذلك فان الصمت المرير وسط البهجة التي تغمـــر بها الشمس الوضاءة الوجود ، يجعلك تستنتج شيئا : شـــيئا مثل بركان على وشك الانفجار .

واشتعلت الشرارة .

عندما أعطيت اشارة متفق عليهـــا ، هبت من الشعب الذى يخيل لمن يراه انه يسير في هدوء ودعة ــ هبت موجة ضـــخمة اندفعت تجرى الى الساحة الفسيحة أمام الجامعة . ويمتـــلىء المكان . وتتسلق فتاة تحمل اكليلا من الغار تمثال الجندى المجهول وتطوقه بأكليلها . ويركع الشعب . وتنشد كل الأفواه المقـــروحة نشيد الحرية .

وما لبث ان سمع في اللحظة ذاتها من آخر الطريق ســلاسل الدبابة الألمانية ، الصفراء مثل الموت ، تجرى نحو المـــكان الذى اشعلت منه الشرارة . وقبل ان تطلق الدبابة نيرانهـــا ، اتجهت المظاهرة التي كانت قد تكاثر عددها لحظة بعد أخرى الى شـــارع آخر . انثنى الحشد وتلوى مثل كائن حي يقاتل ويصارع بايمان وثقة .

كل الأفواه تهتف الآن ، كل الحناجر تصرخ وتجأر .

ــ كفانا هذا ! نريد حريتنا ! نريد الحرية !

من قديم الزمن ، ورث هذا الشعب العاطفة العميقة ، ورث

حب الحرية والعدالة . وها هو يطلق العنان لعاطفته الجياشة حتى يسمع صوته ، بينما شرعت القوات المدرعة من حوله تريق الدماء وتقـــذف بالحمم على أناس عزل ، ليس لديهم ما يذودون به عن انفسهم ، وتمطر الرصاص على النسـاء والأطفال .

« كفانا هذا ! كفانا ! ليسقط الطغاة ! »

ها هو الحشد ينزل الميدان الفسيح الآن مثل موجة عاتية ، وقد تعالت صرخاته واناته . وعادت الشفاة تتمتم أول الأمر ، ثم انطلقت الحناجر بعد ذلك تغنى النشيد الملهب للحماسة ، نشيد الحرية ، نشيد اليونان الأول . وعلى قمة الموجة انبسط علم أزرق أبيض ، تماوج مع النسمات القليلة ، وتماوجت أيضا خصـــلات الفتاة التى حملته بين يديها . تقدمت بخطوات ثابتة ، شـــامخة الرأس ، وقد تأجج الحماس فى قلبها من جديد . والى جوارها سار صديقها . كانا يغنيان للحرية ، ويخطوان قدما . وأمامهمـا بقليل ، أمام عيونهما التى ينبثق منها الشرر ، سار طيف اليونان. وأمامهما سار أيضا أملهما ، السعادة التى تحدثا عنها تحت النجوم، ولد أسود الشعر ، سيربيانه ويعلمانه أن يصير رجلا حقا قادرا على أن يقول فى اللحظة الحاسمة «لا» لا عدوان ، ولادماء تراق هدرا . .

***

ثم توالت الأحداث سريعة كالبرق . ظهرت المركبة المدرعـــة الألمانية عند أول الطريق من الجانب المقابل للمظاهرة النـــازلة ، وانقضت على الجماهير المحتشدة ، وأخذت طلقات الرصـــــاص تدوى من مدفعها الرشاش ، لكن الموجة المندفعة لم يكن بامكانها أن تتوقف ، فمضت فى اندفاعها . وها هو المدفع يقذف رصاصه الآن على الكتل البشرية المتراصة . واستقرت الرصاصة الاولى فى جسم يتفجر شبابا ، جسم الفتاة ذات الشعر الثـــائر حول

راسها ، حاملة العلم الخفاق بين يديها . انتفض الجسد قليلا مثل طائر جريح . ثم مال وسقط على الأرض . وفى اللحظة ذاتها اقبلت الدبابة مسرعة ، يدوى صوتها الشيطانى ، واطبقت على الجسد الجريح المنتفض ، وداست عليها بعجلاتها الثقيلة ،ودخلت فى الجموع فمزقت شملها وبددتها لحظة ثم مضت مبتعدة .

حدث كل شيء كومضة البرق . وما ان انصرفت مركبة الموت حتى عادت الجموع تخرج من جديد من الشوارع الجانبيـة التى التجأت اليها ، وهرعت مولولة الى جثة الفتـاة التى احتضنت العلم وبللته بالدماء التي نزفت من جسدها المهشم .

بعينين مغرورقتين بالدموع أخذها الفتى ، صديقها . حملهابين ذراعيه . ورفع طالب آخر العلم المخضب بالدماء . ومن أعمـاق الصمت البهيم الذى خيم مع انتشار رهبة الموت هبت ضـارية مثل اعصار شديد ، صرخة مروعة ، صرخة الجماهير التى تلعن القتلة ، وتنادى بالانتقام والحرية .

***

رسمت أحلاما للغد ... نامى الآن ، ايتها الصبية . ستأتى الاحلام . لن تأتى اليك ، لكنها ستأتى للأخريات من فتيات وطنك، ولفتيانه ايضا . ستأتى الاحلام لفتيات العالم وفتيانه ، العالم كله . وسيذكرك الجميع ، ويباركونك ، لان احلامهم قد تقدست بدمائك .

ذيونيسيوس كوكينوس

أليكسي سائق العربة

عاد العجوز اليكسى ستاليس الذى كان يعمل حوذيا فيمامضى .. عاد الى شبابه في صحبة حفيده . ولقد وصل هـذا الصبى الى حياته في وقت اعتقد فيه العجوز انه لم يبق له شيء يعمله فى هذه الدنيا . لقد استوفى حقه من مسرات الحياة منـــذ عديد من السنين ، كما شرب كؤوس الحزن مترعة ايضا ولم يعد ينتظر ما هو أسوأ مما مضى . وقد جاءته المتـــاعب فى الوقت الذى يتخفف الآخرون من عبئها . جاءته عندما كبر أولاده وأصبح هو يقترب من الخامسة والستين . كان قد تزوج مرتين . ولم ينجب أولادا من زوجته الأولى . ثم تزوج من خريسافغى ورزق منهـا ابنيه ، ستاثى وفاسيلى ، ثم ابنته ماتينا فى النهاية . وليته لم ينجب احدا منهم ، فقد كان الابن البـــكر احمق ، يرافق ندماء السوء ، يسهر الليالى ويرتاد الحانات ، يثير المشاكل ويخرج من علاقة نسائية ليتورط فى غيرها ، حتى اصيب بمرض الرئة فمات وما لبث العجوز اليكسى ان فقد زوجته خريسافغى التى مرضت بذات المرض وماتت بعد ما يقرب من عامين . ولئن كان الأب قـد أرسل ابنه ستاثى الى ماروسى على أمل ان يشفى هناك ، فقد كان هدفه الأصلى من ذلك ان يعزله عن بقية الأسرة وينقذها من المرض المخيف ، الا ان خريسافغى أصرت على ان تذهب مع ابنها

.. ولقد بح صوت اليكسي ليثنيها عن عزمها دون جدوى . كانت صلبة الرأس بدورها متشبثة برأيها فيما تراه صوابا ، لكنها كانت أماً على أية حال ، ويغفر لها اصرارها على عدم البعاد عن ابنها . كانت تريد ان ترافق ولدها المريض حتى لا تتركه وحيداً ولم يكن بامكانها ان تفهم ان العدوى قد تنتقل اليها وتموت ، فيحرم الجميع من رعايتها وقلبها الحنون . فاليتيم حقا هو من فقد الأم ، وكيف كان يستطيع اليكسي ان يشرف على بنت بلغت سن النضج الأنثوى ويوقظ حديثها الفتنة الراقدة فى الأعماق ؟ ليس ثمة من سبيل الى ذلك الا ان يقوم بدور الحارس ليلا ونهارا ليحافظ عليها . لكن اليكسى كان حوذيا يجوب بعربته الأنحاء ليعود الى بيته بلقمة العيش ، ويدخر من ايراد العربة أيضا ما يسمح له بتجديدها عند استهلاكها . ولهذا فلم يستطع أن ينجو من النكبة . فبعد وقت قصير أخذت تصرفات ماتينا تثير المتاعب . هربت مع صعلوك لم يكن بمقدوره ان ينفق على قطة لا على امرأة .. قلب اليكسى الدنيا رأسا على عقب بحثا عن ابنته ، وفى النهاية عثر عليها فى فندق مشبوه ، أما ذلك العشيق القذر فقد فر ، ولم يبق له أثر ، وهل كان يجدى أن يتعقب اليكسى رجلا خائبا ليجبره على الزواج من ابنته ؟ لو كان قد فعل لماتت ماتينا جوعا الى جوار زوجها ، أو ربما دفعها الى الرذيلة ليعيشا من كسبها ، فقد كانت ماتينا جميلة وطائشة كما انها لم تكن بنتا قاصرة حتى يمكن لأبيها ان يقاضيه بتهمة انه أغواها وغرر بها . لقد سارت برضاها الى أنياب الذئب ، فقد كانت شابة بلغت سن الرشد وتعرف كيف تصون نفسها اذا أرادت . لذلك فضل اليكسى أن يبحث عمن يتزوجها على ان يكون رجلا جادا قادرا ان يحكم امرأة ، الا ان الوقت لم يتسع أمامه ، فما لبثت ماتينا أن تعرفت فى هذه الأثناء برجل آخر ، كان عاملا من ابناء بلدة تينوس اسمه يورغى كيفالارى . نزح الى اثينا من

الاسكندرية ، ويشتغل بمصنع للرخام قريب من بيت ماتينا ..
لم يرق كيفالارى لأليكسي ، فقد كان فتى صغيـر السن لا يكبر ماتينا . ولم يكن يبدو لأليكسي انه بقادر ان يكبح جمـاح فرس تهز ذيلها . كما لم يكن اليكسى يثق فى ابنته ، لقد أتت فعلتهـا الأولى ومضى يراقب سلوكها بعد ذلك ، فكان يراها دائبة التنقل بين الشباك والمرآة . كان يريد أن يرفض أن يزوجها منه ، الا انها فتنت بصانع الرخام وهامت غراما به ، فاضطر اليكسى الى ان يزوجها منه خوفا من ان يخطفها بدوره ويجرى بها هنا وهناك دون ان يكون باستطاعته ان يطالبه بشيء ، طالما سيستطيع كيفالارى ان يرفض ويكون سنده القوى فى ذلك انه لم يكن أول رجل فى حيـاتها .

كان العصفور قد طار من العش ، ولم تعد ماتينا لتركز فى بيت ، عاشت مع زوجها فى وئام مايقرب من عا مونصف أو ربما عامين وأنجبت منه ولدا ، لـكن اما لأنها كانت محط أنظار الرجال الذين اذا ما لمسوا الطيش فى امرأة ظلوا يلاحقونها ويطاردونها ، واما لأن الخيانة كانت تجرى فى دمها ، مالبثت ان عادت تعقـد الصلات برجال آخرين . وقد اشتم اليكسى رائحـة تفوح من صحاب كيفالارى المترددين على بيته ، بل ونمت الأخبار الى علمه فذهب يحذر ابنته .. حاول أن ينصحهـا فصـدته ، فغضب وهددها بأنه اذا تأكدت شبهاته فانه سيذهب ويذبح بنفسه ذلك العشيق . وفى النهاية ارتكب حماقة كبيرة بأن قابل كيفـالارى وطالبه بأن يأخذ حذره من أولئـك الصحاب الذين يحيط بهم زوجته ، وبأن يقطع صلاته بهم ، وهو الأمر الذى لم يـكن يعره كيفالارى كثير التفات من قبل ، اما لقلة خبرته بالحياة ، واما لفرط ثقته فى المرأة التى تزوجها عن حب ، وبعـد قليل وقعت الـكارثة ، قتل كيفالارى خارج بيته احد اصدقائه شك فى أن يكون على علاقة بماتينا . على ان هذه المرأة بدلا من ان تحسن

سلوكها بعد هذا الحادث المروع راحت تعاشر رجلا ما لبث أن هجرها بعد بضعة اشهر ، وانتهى بها الأمر الى التردي فيأحضان رجال كثيرين .

تبرأ اليكسي من ابنته تماما ، أو بعبارة ادق كان يقول ذلك ، لـكن قلبه في داخله كان يدمى عندما يتـذكرهـا ، وكيف كان يستطيع ان ينحيها عن فكره ؟ لم يكتشف الانسان بعد طريقـة يضبط بها تفكيره مثلما يضبط الساعة ، ويوقفه عن المضي الى الهواجس التى تعذبه ــ وأى عذاب اشد من ان يرى الأب ابنته ينحدر بها الحال الى درك لا خلاص لها منه ــ وكان اليكسي يفكر رغما عنه في ابنته تلك الضائعة ، وقد بعث اليهـا بالأصدقاء والأقارب ليتحدثوا اليها وليوضحوا لها بشـاعة الطريق الذى تسير فيه ، وليقولوا لها انها بتصرفاتها قد أودت بأبيها الى القبر، الا أن الابنة لم تثب الى صوابها قط ، كانت تقطع حـديثهم تارة وتعرض عنهم ، وتارة كانت تصيح فيهم ــ عندما كانوا يضيقون عليها الخناق ــ بأن من‌حقها ان تفعل ماتريد ، وبأن أباها لا سلطان له على حياتها بعد ان تزوجت ، وأن حياتها سواء أكانت حسنة أو سيئة فانها من شأنها وحدها ، وبأنها ليست مجنـونة حتى تعود لتحيا بحظيرة تزكم الأنوف فيها رائحة الجياد ، وتارة كان يرق كلام الابنة عندما يثير المتحدثون فى قلبها الشفقة علىالعجوز لـكن الأمر كان يظل بلا نتيجة ايجابية ، ولقد كانت تقول :

ــ ما الذى يجعلنى أذهب للاقامة عند أبى ؟ وحتى اذا أردت الذهاب لم أعد استطيع ذلك ، سأسبب له كارثة أكبر مما سبق ذات يوم . اننى أعرفه ، كما اننى أعرف نفسى أيضا .

كان هذا هو الجرح الـكبير الذى لا يندمل فى حياة اليكسى ، لقد تركت وفاة زوجته وابنه الأكبر فى نفسه المـا ، أما ما آل اليه حال ماتينا فقد قصم ظهره ، وجعله يمضى فى الحياة جثة

هامدة . كان يركب عربته شارد الذهن يفكر في ابنتـــه ، كان الجميع يسخرون مما وصل اليه مزاجه ، فقد صار لا يفتح فمـه حتى ليلفى بتحية الصـــباح . قلت جولاته بالعـربة ، فالزبائن لا يقبلون على حوذى مقطب الجبين ارتسم على وجهه الوجوم ، ويفضلون عليه غيره ، ثم يجب عليك ان تكون يقظا مفتوح العينين حتى تصطاد الزبائن . فهذا العمل مثل امســاك العصافير في الهواء . وبدأ القدم يدب في عربته ، وأهمل العناية بها وترميم ما بلى من أجزائها بل ولم يعـــد يعمل حســـابا حتى لمصاريف استهلاكها ؛ لقد فتر اهتمامه حتى بنفسه .

وجاء عام ١٩١٢ وذهب ابنه الثانى الى الحرب وفي اكتوبر قرأ اليكسى بكشوف القتلى في معركة « ساراندابورو » اســم فاسيلى . يا للشقاء ان يكون لك ابن .. بل وأن لا يكون لك غيره .. واذا به يقتل .

انتهى .. انتهى .. كل شيء ، كان لأليـكسى أسرة ولم يبق منها أحد ، من أجل ماذا يعيش ؟ رأسه ثقيل كما لو كان قد شرب خمرا رديئة من ذلك الصنف الذى يسمم شاربه ويسبب له الألم .. لم يكن بقادر ان يفكر في شيء ، ولا أن يدبر شئون عمله .. كانت تدور في عقله كل هذه الشخوص الحبيبة التى لن يراهـا بعد ذلك .. وماتينا ذاتها ألم تكن في حكم الموتى ؟ وكبر اليكسى في السن عشر سنوات دفعة واحدة . أحس بأنه مريض رغم أن الطبيب لم يكن يجد به أى مرض . لم يكن بقادر أن ينام ، ودبت الرعشة في يده ، وتدهور به الحال رويدا رويدا ، لم يعد يخرج بعربته ، فأجرها لغيره ، ثم نفق أحد جواديه ، فبـاع عربتـه ، واشترى اخرى يجرها جوادا واحدا ، أجر لها سائقا كان يغالطه ويسرق الايراد ، وبدأ اليكسى يعجز عن ان يدبر معاشه ، وشـح طعامه ، وسرى النحول في جســـده ، وعندئذ تلقى مظروفا به

خمسمائة دراخمة ، من عملة قبل الحرب ، ارسلتها اليه ماتينـا التى علمت بما انحدر اليه الحال فأرادت ان تسـدى له العون ، بادر اليكسى برد النقود اليها مهددا بأنها اذا عادت وجرأت على اتيان مثل هذا الفعل مرة اخرى ، سيأخذ السوط ويذهب لينهال عليها ضربا حتى يومى جنبيها .

على انه ولئن أعتبر اليكسى ابنته ميتة ، الا انهـا كانت على قيد الحياة فعلا ومن غير المعقول ان تتركه ينعم براحته ، ذات يوم كتبت له تخبره انها ستسافر الى الخـارج ـ وعنـدما وصله الخطاب كانت قد سافرت فعلا مع رجل وعدها بأن يتزوجها .. وطلبت منه فى خطابها أن يذهب الى احد البيوت لبتسلم بعض الأشياء العائلية كانت قد اخذتها من بيت أبيها عند زواجها .. وكان هذا جرعة جديدة من السم يجرعها اليكسى . فمن ذا الذى سيعقد قرانه عليها من جديد ، تلك الخشبة النخرة ؟ لا شك أنهـا قد كتبت له ذلك لتبرر فعلة طائشة جديدة . ورغم أنه كان قد وطد العزم على ألا يراها مرة اخرى وكان قد شطبها من حياته ، الا انها وقد رحلت من اثينا ذاهبة الى المجهول ، أحس فى اعماقه ألمـاً كما لو كانت تعيش حتى ذلك الحين الى جواره ويفقدها الآن الى الأبد . وبقلب ثقيل ذهب الى البيت الذى كتبت له عنه .. لا من اجل الاشياء فما حاجته اليها ؟ بل من أجل أن يمر بالمكان الذى كانت ابنته فيه حتى أمس ، وذلك دون أن يريد الاعتراف لنفسه بتلك الحاجة الداخلية العميقة . وقد سلمته المراة التى تركت لها ماتينا رسالتها بعض الحلى الرخيصة من صنع البندقية موشـاة بقشور الذهب ، كانت ملـكا لامها ، عبارة عن زوج من الأقراط الـكبيرة وأيقونة خلف غطائها الزجاجى صورة اليـكسى عنـدما تزوج خريسافغى . ثم رفعت المراة بين يديها طفلا وأومأت للعجوز قـائلة :

ـ انه حفيدك ، تركته لأسلمه اليك ، وهو لم يعمد بعد .. المسكين .

قطب العجوز حاجبيه ، لم يكن له أحفاد ، فما شأنه هو اليكسى الشريف ، اليكسى ستاليس ، بهذا اللقيط ، ابن الشوارع لكنه لم يكن بقادر ان يرفع بصره عن وجه الصغير المتورد الذى كان ينظر اليه بعينيه اللتين تشبهان خرزتين سوداوين ، وأخذ الجليد الذى فى قلبه يذوب لحظة بعد لحظة ، لم يكن محقا فى ان يعتبره ابن حرام ، وحسب فى عقله التواريخ وعمر الصغير ، لابد انه يبلغ الآن سنة ونصف ووجدانه لا يمكن الا أن يكون ابن كيفالارى ، وقد كان بحاجة الى ذلك ليبرر ذلك الحنان الذى احس به نحو طفل ابنته الذى ليس له من معين ، وقال لنفسه : « يا لى من متحجر القلب ان أترك ابنها » .. ظل بعض الوقت صامتا يفكر ثم حمل الطفل بين يديه وانصرف .. جعل اليكسى من نفسه أماً ومربية وأباً للولد ورباه ، عمده وسماه ستاماتى على اسم أمه ماتينا . ومضى الولد يكبر ويصير صبيا متين البنيان ممشوق القوام ، يتفجر حيوية وذكاء . ومع نمو الصبى دبت الحياة فى الجد العجوز ، كما لو كان يستمد من حيوية الصبى قوى جديدة ، اصبح يشعر الآن أن له هدفا يسعى اليه ، الأمر الذى لم يكن قد عرفه مع أولاده ، فى ذلك الحين كان يشغله العمل بالجياد ، والزبائن ، أما الآن فلم يكن يشغله سوى ستاماتى . ترى هل كانت الهموم والآلام هى التى جعلت قلبه يفيض بالمحبة ؟ الذى كان يعرفه اليكسى انه لم يحب أحدا قط مثلما أحب هذا الولد . كان حياته .. ورويدا رويدا اصبح معلمه ايضا ، معلمه فىأمور الدنيا ، وظواهر الطبيعة الكبيرة التى كانت أول ما أثارت فضول الصغير ، كان يصطحبه الى ميدان الحى وحديقته ، وكان يحادثه ويريه ما حولهما ، على انه ذات يوم اضطر أيضا الى الاجابة على تساؤلات مربكة أثارها

الصغير ، كان يرى للأولاد الآخرين آباء وأمهات فسأل عن أبويه فأجابه العجوز :

ـ ماتا ..

ـ ومتى ماتت أمي ، ياجدي ؟

ـ بمجرد أن ولدتك .

وفعلا ، كانت ماتينا قد ماتت عندما قال له العجوز ذلك .. بلغ هذا النبأ الى العجوز . وكانت قد مـاتت اسوأ ميتة ، فقد هجرها عشيقها وتخلى عنها . ومن يدرى فى أى مستشفى دفعت ثمن خطاياها ، أن لم يكن قد نهشها الجوع والمرض على أرصفة باريس .

ـ وأبي ، ياجدي ؟

ـ رحل . اختفى . قل أنه ميت بدوره .

وهل كان يكذب عليه ؟ كان كيفالارى فى السجن . تمكن فى المحاكمة أن يقدم الادلة على خيانة زوجته ، لكن النيابة العامـة أثبتت أن القتيل لـم يكن على صلة بتلك المرأة . كان القتل من أجل الشرف ، لكن كيفالارى كان قد قتل رجلا بريئا ، لم يكن هو عشيق ماتينا . فحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات .

وباللهجة التى رد بها اليكسى على الصغير ، قصـد أن يفهمه ان هذه المسائل لا يليق به أن يستفسر عنهـا . فلم يـكن الامر ثقيلا على الصغير فحسب بـل وعلى العجوز أيضا . فقد كـان يجاهد ليقصى عن فكره وذاكرته تلك الحقبة الحزينة من حياته مثـل مقبـرة لم يكن يريد أن يراها . وكان يعيش على ذكريات الايام الطيبة وعلى اللحظة الحاضرة . وهكذا أتاح لجرحه العميق أن يلتئم . وأصبح صحابه يسمعون منه أطرف الأحاديث وأكثرها مرحا .

يالها من أيام تلك التى كان يقف فيهـا بعربته أمـام فندق بريطانيا العظمى . عربته التى كانت أكثر عربات الأجرة أناقة فى أتينا . لم تكن لتقل عن تلك العربات ذات الخيول الثمانية التى كان السفراء وعلية القوم يدخلون بها الى الفندق الفخم ويخرجون بها منه . كان معطف اليكسى الطويل من الصوف الأزرق . ويلمع عليه صفان من الأزرار النحاسية الكبيرة . وكان قفازاه الأبيضان نظيفين وحذاءاه يلمعان مثل المرآة . أما جواداه فقد كان يحسده تسيرونو فيتش عليهما ويعرض عليه أن يضمهما الى الحظائر الملكية . ومن ذا الذى كان لا يعـرف آنذاك زيفـرو وكورونيو وكاليفا وتيموليوندا فيليمونا . كان عالما بأسره . ناهيك عن لامبسى . لقد أوصل ثيوتوكى أكثر من مرة الى تريكوبى . كيف يمكن للمرء أن يذكرهم كلهم . خذ جرائد تلك الحقبة ، خذ قائمه الاسماء التى كانت تذهب الى حفلات الرقص الملكية . وستجد هذه الأسماء . فى حفلة قران ولى العهد ، عندما لم تكف العربات الملكية لنقـل كل الأجانب الذين دعوا رسميا ، استؤجر اليكسى للقيام بتنقلات دوق اسيكس وفى مرة أخرى استقلت عربته من فندق «بريطانيا العظمى» سيدة اجنبية ممشوقة القوام ، ترتدى ثوبا اسـود وتغطى وجهها بغلالة رقيقـة وطلبت اليه أن يقوم بتوصيلها الى القصر . وصعد الى جواره احد مستخدمى الفندق نزل عنـدما وصلوا الى القصر وقال شيئا لأحد موظفى البلاط . وما لبث أن رأى اليكسى الملك قد حضر وتوجه الى السيدة التى كانت تنتظر فى داخل العربة . أجل ، الملك جورج بنفسه . وقـد قبل يد السيدة ثم تأبط ذراعها ورافقها الى داخل القصر . هل تعرفون من كانت ؟ أوجينى ، أول امبراطورة لفرنسا . وذات ليلة ، قام اليكسى بتوصيل بلانش الى فيلا ثون . وانتظر فى الخارج حتى الثالثة والنصف . وعندما غادرت بلانش الفيلا ظهرت فى السماء نجمة الليل الأخيرة . الا تعرفون بلانش ؟ امرأة فرنسية مغامرة ،

لكنها رائعة الجمال ـ وقد كتبت الصحف الأجنبية عند زيارتها لأثينا الكثير من التفاصيل عن علاقتها بناظر الخاصة الملكية الذي تعرف بها في ايكس لي بين . أمور غريبة ، كان يعرف شخصيات أثينا وأحداثها في ذلك الوقت كما كان يمكن أن تمر أمام سائق عربة تحدث الى بوابي الفنادق الكبيرة والقصور ، والى ركاب سكارى يحلو لهم ان يثرثروا ، كان يعرف شخصيات أجنبية يحيطها الغموض ، وبيوتا اتخذتها شخصيات معروفة أمكنة للقاءاتها . وكان يعرف أيضا كيف تكونت بعض الثروات الكبيرة ، وقصصا عن مغتصبي أراض اصبحوا من مشاهير القوم وعمدا للمجتمع ، وتركات تخفي وراءها جرائم قتل مروعة .. من ذلك الصنف من الجرائم الذي لا تطوله يد القانون ، ثم فضائح كثيرة تمس شخصيات مشهورة في أثينا . وبالرغم من ذلك ظلت مستورة وخافية ، صفعات عند مدخل الفندق ، مبارزات لم يعرف كثير من الناس دوافعها الحقيقية ، لاتصدقوا أن عقول النساء قد خفت هذه الأيام ، لقد كن هكذا على الدوام .. كل ما في الأمر انهن كن ينجحن في تدبير أمورهن على نحو آخر . كن يرتدين ثيابا كثيرة على انهن ظللن من الداخل كما كن ، ولم يتغيرن ، كان اليكسي يروى الكثير لكنه كان يتحرج من ذكر الأسماء ، كان يكتم السر الذي يصل الى سمعه أو بصره ، فقد علمته المهنة ذلك جيدا ، ذات يوم كان يجلس في مقهى الحي الصغير الذي يقيم فيه ومرت أمامه سيدة مسنة في صحبة فتاتين ورجل ، فانفلتت من بين أسنانه الشتائم :

ـ أيتها المرأة القذرة !

وسأله الحاضرون :

ـ من تشتم يا شيخ اليكسي ؟

ونظر الى النساء فى الطريق ، كانت الفتاتان فى منعة الصبا حقا ، لم يكن اليكسى يعرفهما . واستدرك قائلا كمن يدافع عن نفســـه :

ـ أنا شتمت أحدا ؟ لم أقل شيئا .

ـ قلت أيتها المرأة القذرة .

وأجاب :

ـ تذكرت الخادمة التى لم تسق الجوادين هذا الصباح .

لـكنه كان يكذب ، كان قد لفظ بالشـــتائم فى حق المرأة العجوز ، كانت معروفة الى أهل الطبقة الراقية ، وكان اليكسى يعرف أمورا كثيرة فى حياتها . وعاد يتحدث عن أسرار المجتمع فى زمانه .

وكان يضيف الى كلامه ملاحظات اجتماعية وأحكاما على قدر تصوره وعقليته ، وبميوله التأملية التى نمتها الحنكة والتجربة وعقليته البسيطة المحدودة شيد وجهـــة نظر شاملة الى امور الدنيا .. هذا المجتمع يتحرك على عجلتين : حب المـال واللهفة الى الثراء . ان الناس غير قادرين على أن يجدوا راحتهـم .. انهم يعيشـــون ليلحقوا الضرر بالآخرين وبأنفسهم أيضـا وذلك لسببين كبيرين ، أولا وقبل كل شيء ، انهم لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم ، ما الجدوى من الألسن ؟ ما أشبه هذا العالم ببرج بابل .. ذات مرة عندما استأجر اتريكوسليمين اليكسى مـــدة أسبوع ليقله بعربته كل مساء الى كيراميكو قال له سليمين بلغـة يونانية ركيكة :

ـ لا يريدون أن يفهموا اننى أحب اليونان .

وكان اليكسى يقول لأصحابه :

ـ جاء سليمين ليعطى هذا البلد كنوزه التى يأكلهـا التراب فقالوا عنه انه مغامر أفاق .. لعمرى ، انى أتساءل : لماذا ؟

لـكن حتى اليكسى هذا ، الرجل البسيط ، من فهمه ؟ بعيدا عن جياده لم يكن يعرف احدا يستطيع ان يتفاهم معه . وكان يقول :

ـ الجياد . الجياد فحسب .. هى عزائى !

كان جواداه المسكينان يحسان بأحاسيسه . كان يهز اللجام ويصفر . ويأتى صوتا معينا بشفتيه ، واذا بهما يمضيان بالعربة الى حيثما يجب الذهاب ، كانا يقفان ويتحركان وينحرفان كما لو كانا يقرآن أفـكاره .

اما السبب الـكبير الآخر الذى كان يعزو اليه اليكسى نكبة البشر فهو انهـم لايستطيعون ان يفهموا انهم عابرون فى هـذه الدنيا ، يخطرون فيها لحظات ويرحلون ، فما الجدوى اذن ان تزعج جارك ، أن تسرق منه زوجتـه ، أن تتسبب فى أن يولد ابنك فى بيت غيرك ، أن تطمع فى ان يكون لك كل شىء ؟ انك راحل غـدا . لقـد رحـل كاليغاس . لقـد رحل رويذيس ، ونيقولاوس روسياس ، وثون ، وتسيرنوفيتش ـ على أنه لم يكن يشير الى أفـراد أسرته قط : الى زوجته وأولاده الذين رحلوا بدورهم ـ الجميع يرحلون . لمـاذا لا تمر نظيفا من هذا الدرب الصغير دون أن نوسخه ؟ ان حياة الانسان قطرة ماء ، ما ان تقع حتى تجففها الشمس فتتبدد بخارا ، ثم تعـاود الوقوع قطرة اخرى وتتبخر من جديد . انها قصـة للتسلية ، ما الداعى أن تجهد نفسك من أجل أفراح وأحزان عابرة ؟ لم يعد لاليكسى الآن شىء .. حتى العـربة ، والجوادين اللذين كان يحسـده عليهما

المشرف على حظائر القصر .. لم تعـد له . كان مازال يرتدى حذائيه العاليين القديمين ، وسترته من بقـايا المعطف الصوفى الأزرق .. آخر معاطفه السابقة ، لم يعد يملك سوى عربتين يجر كلا منهما جواد يصرف عليهما ويؤجرهما لغيره ، عربتـين لم يكن يجرؤ أحـد ان يظهر بهمـا أمام الزبائن فى تلك الأيام الخوالى الجميلة . ولم يكن يحدوه الى تشغيل هاتين العربتين سوى لقمة عيشه ولقمة عيش ستاماتى .

ومع ذلك أحس اليكسى أنه أحسن حالا من أى وقت مضى .. وعزا سكينة قلبه وصفاء مزاجه وتجدد شبابه الى حنكته وخبرته بالحياة ، والى قدرته على مواجهتها بروح فلسفية ، ونسى أن كل هذه النعائم قد جلبها له ذلك الصبى ، فى الوقت الذى كان قد بدأ فيه يتهدم مثل عربته القديمة .

وفجأة ظهر الرجل الذى كان قد اعتبره اليكسى غير موجود . كان يطرأ على باله مثل هذا الخاطر من وقت لآخر ، الا انه كان يحاول فى كل مرة ان يطرد هذه الفـكرة باعتبارهـا أقل الأمور احتمالا .

ذات صباح سمع خطوات رجل .. خطوات ثقيلة فى الفناء ، ورأى بالباب ستاماتى وقد وقف ينظر وجلا الى ذلك القـادم ، فخرج العجوز بدوره ليرى من يكون ، رأى كيفالارى يقف عنـد باب الفناء يتطلع الى الصبى وعندما رأى كيفالارى العجوز تقدم اليه فأفسح له الطريق ليدخل ، تمتم كيفالارى بتحية الصباح ، لم يستطع اليكسى ان يجيبه ، الا انه بعد هنيهة تغلب على العقدة التى كانت تطبق على عنقه وقال له :

ـ اجلس .

وأشار له الى مقعد بجوار المنضدة ، الا ان العجوز ظل مقطب الحاجبين ، وبقى وجهه ينم عن أثر هذه المفاجأة غير السارة ، وقال له كيفالارى :

ـ لا تضايق نفسك . لن أبقى .

وأجابه العجوز :

ـ هيا اجلس ، هل تريد فنجانا من القهوة ؟

جلس كيفالارى وهز رأسه علامة النفى ، لم يكن يريد شيئا خيم الصمت برهة .

وسأله اليكسى لمجرد ان يقول شيئا :

ـ أهى زيارة عابرة ؟

ـ اية زيارة عابرة ؟ جئت ليلة امس من « اغينا » أمضيت الثانى السنوات فى السجن كلها . الحمد لله اننى خرجت حيا . الحمد لله .

لم يكن كيفالارى يعرف أحدا فى أثينا يتوسط للعفو عنه ، كما يفعل الجميع ، حتى أشدهم اجراما . اكان أهله ومعارفه فى الاسكندرية ، وبعد هنيهة أضاف لائما :

ـ شكرا للأقرباء الذين جاءوا لزيارتى فى السجن وجلبوا ابنى معهم لأراه .. ولو مرة واحدة .. يبدو أن « اغينا » بعيدة من هنا بعد المحيط .

كان كيفالارى محبوسا فى سجن « اغينا » وكان اللوم موجها الى اليكسى . الذى أجابه قائلا :

ـ اذا كنت تقصدنى بكلامك ، فما الجدوى من مجيئى ؟

ولا تسل كم كلفتنى كـــل تلك الأمور ؟ كان لى بنت وفقدتها .. أرجو ألا نجتر أحزاننا الآن .. ما حدث ، حدث وقضى الأمر .. ثم عندما حضر شريكك بوستولى فى المـــرتين وسأل عن احوال الصبى قلت له انه اذا كان هذا ما يشغلك ، فليطمئن بالك .. انه هنا فى بيته .

وخيم الصمت من جديد ، ثم التفت كيفالارى نحو الصغـير الذى كان يقف خارجا فى الفناء قرب الباب ، وسأل :

ـ أهو هذا ؟

وأجاب اليكسى بالايجـــاب ، ثم طلب من الصبى أن يخرج ليلعب فى الشارع ، فبادر الى الانصراف :

وقال له كيفالارى :

ـ لا تصرفه . قل له اننى أبوه . ادعه للحضور .

بدا التردد على اليكسى ، فكرر عليه كيفالارى الطلب :

ـ هيا ، ادعه للحضور اذن .

خرج اليكسى ونادى الصغير ، وقال له ان ذلك الرجـل فى الداخل هو أبوه الذى كان قد اختفى .

ـ لقد عاد ، وسيسافر من جديد ، تعال قبل يده .

وأدخل الصغير معه ، تلفت الصــغير مرتبـكا وقد أمسـك بسترة جده ..

مد كيفالارى يديه ، وأمسك به من كتفيه ، وجذبه الى حجره ومال وقبله ، خيم الصمت من جـديد ، انبعث الدموع فى عينى الرجلين ، ارتعش فكا السجين السابق برهة ، ودارت حدقتـا

عينيه تحت أجفانه الكثيفة ، وتقلص جبينه ، كان كما لو كان يغالب نحيبه . دس يده فى جيبه وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة . تنحى الصبى جانبا ، فقال له اليكسى وهو يجذبه :

ــ اذهب الآن ، والعب .

وقال له كيفالارى بصوت أجش :

ــ لا تذهب بعيدا .

توجس اليكسى خيفة منذ الوهلة الاولى ، على ان معالم الخطر أخذت تزداد وضوحا . وقال العجوز :

ــ حسنا ، حسنا ، انه لايذهب بعيدا ، والآن .. ستبقى لتتناول الغداء معنا .

ومضى اليكسى على سجيته يتحدث الى كيفالارى حديثا نابعا من القلب :

ــ سأرسل صينية من المكرونة الى الفرن ، ويمكنك ان تقيم بالبيت الى ان تتدبر أمور معاشك ، وتجد عملا ، عندى مرتبة وحاملان يمكنك ان تنصب لنفسك منها سريرا ، وعندما تجد عملا وتريد أن تستقل فى الاقامة يمكنك أن تذهب بمعونة الله حيثما تشاء .

ورد عليه كيفالارى قائلا :

ــ كلا ، انى راحل الى الاسكندرية غدا ، جئت من أجل الصغير .

قال له اليكسى :

ــ اذن ، ابق معنا الى غد ، لترى الصبى قليلا ، وبعد ذلك سافر على بركة الله .

قال كيفالارى :

ـ جئت لآخذه .

رفع اليكسى رأسه ونظر اليه ، كانت عينـاه كما لو أصيبتا بحول مفاجىء ، وظل فمه مفتوحا لا ينبس بكلمة .

كرر كيفالارى عليه القول :

ـ جئت لآخذ الصبى .

وسأله العجوز كما لو كان لم يفهم .

ـ من ؟ من ستأخذ ؟

ـ الصبى .

حرك اليكسى بيده علبة كبريت كانت على المنضدة . ثم تصنع الابتسام وقال :

ـ خل عنك ذلك . عد الى صوابك ، ودعك من هذا الكلام : الولد على مايرام هنا .

على ان كيفالارى عاد يقول :

ـ اسمع ، لقد شرحت لك مقصدى بكل وضوح جئت آخذ ابنى ..

ورفع الـكسى صوته وقال :

ـ ما الذى يجديك من اخذ الصبى ؟ لا تبدو صحتك بخـير يا ولدى . ثم انه لن يريد ان يذهب معك .. تعـود على الحياة هنا معى .. ولا يعرف غيرى .

وأجاب كيفالارى قائلا :

ـ لا أستطيع أن أخوض معك فى أحاديث كثيرة .

فاعتدل اليكسى فى مقعده ودق بقبضته الغليظة على المنضدة وصاح قائلا :

ـ مثل هذه الأعمال الخرقاء هى التى ضيعتكما وأطاحت بحياتكما معا ، صفيتما بيتكما ، تبادلتما الطعنات ، ودب فيكما العطن والفساد ، وزحف عليكما الخراب . ثم ها انت تعود .. لم يمض على خروجك من السجن يوم واحد ، ولا تعرف أين تسند رأسك .. تعود لتطالب بالصبى .. أليس ثمة قطرة من الحياء ؟ !

ثم أضاف مخفضا صوته :

ـ اسمع يا جورجى .. مازلت فى شبابك ، فحاول أن تثوب الى رشدك .. ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله لى عن سفرك الى الاسكندرية ؟ لن ترحل من هنا ، ستبقى فى أثينا ، وها هو بيتى تحت أمرك تقيم به الى متى تشاء .. دعك من هذا الكلام انت بحاجة الى نقود ، ويبدو عليك المرض ، اذهب ليفحصك الطبيب ، هذا هو الكلام المعقول ، أما ستاماتى فكف عن الحديث عنه ، وهل يذهب الى الاسكندرية من ولد فى اثينا ؟ سيبقى هنا ليكبر ويصير رجلا ، كان يجدر أن تحضر امتحانه العام الماضى فى المدرسة ، انه فى الثالثة الابتدائية ، وهو الأول بين الطلبة وأحسنهم سلوكا ، بل انه قدم مشهدا تمثيليا مع اثنين من زملائه فى حفلة المدرسة ، آه ، لو رأيت كم كان ظريفا وهو يؤدى دوره . سأل الكل من يكون هذا الصبى ؟ كما أن خطه رائع الجمال .. ليتك ترى كيف يكتب الحروف مستديرة نظيفة وانيقة بلا أدنى خطأ . ألم نذهب نحن أيضا الى المدرسة ؟ ومع ذلك فمازال توقيعى مثل نبش الدجاج ، رغم اننى لم أكن طالبا غبيا . أما هذا

الولد فهو جد مختلف عنا . ايه ، هذا العفريت سيدخل الجامعة. سترى ذلك اجلس هنا الآن حتى أذهب لأقول للخادمة أن تعد الأكل وترسله الى الفرن ، وسنذهب بعد ذلك الى الصيدلية حيث أعرف صيدليا صديقا لى سيصف لك مقويا .. دواء وارد الخارج ، معبأ فى زجاجة جاهزة ، ستتعاطاه نقطا فى قدح من النبيذ ، قد يكون تمنه مرتفعا قليلا ، لكن مفعوله فعال ويبعث الحياة فىالعظام الرميمة ، ستتعاطاه ولن يمر أسبوع حتى تسترد عافيتك ، وبعد ذلك سننظر فى أمر البحث عن عمل لك ، وبالنسبة الى أى مبلغ من المال تحتاج اليه ــ كما سبق أن قلت لك ــ ستجدنى رهن اشارتك . الحمد لله ، الخير موجود .

كان يلوح على كيفالارى انه مريض حقا ، فالهزال باد عليه ، وجلده قد اكتسى بلون التراب من جراء الحياة فى السجن ، لقد مرت عليه السنوات الثمانى كما لو كانت عشرين عاما .

قال كيفالارى :

ــ لست مريضا ، ولست بحاجة الى نقود . بعث أهلى الى من الاسكندرية لأذهب اليهم ، لا أستطيع ان أترك ابنى هنا .

نهض اليكسى غاضبا وقال :

ــ ليس لك أية صلة بهذا الولد ، لقد أنجبتماه ولم تفكرا فى أمره ، والا لما قتلت أنت من قتلت ولما فعلت أمه مافعلت ، هل كنتما جديرين بأن يكون لكما ولد ؟ الابن فى كنفى أنا . انه لى وحدى . أخذته مسكينا بائسا لف فى أسمال بالية ، مثل حثالة القى بها فى المجارى ، أرضعته وربيته .. وها انت قد رأيته ولدا قويا متين البنيان ، مثل جحش فى حظيرة وفيرة الطعام ، وتريد الآن ان تأخذه منى ، محال ، انزع هذه الفكرة من ذهنك .

ورد عليه كيفالارى بصوت ينم عن العزم والاصرار :

ـ ما الجدوى من كثرة الـكلام .. الا تعرف الأصول ؟ انت عجوز .. كيف تريدنى ان أكون مستريح البال بعيدا عنه ، ثم اننى أريده .. ألست والده ؟

رنت عبارة « انت عجوز » فى أذنى اليكسى بشدة ، ربما كان كيفالارى على حق .. لم يكن يستطيع ان ينازعه فى هذا الأمر .. كان كهـــلا ، طاعنا فى السن جدا ، يبلغ من العمـــر الخامســـة والسبعين . ثم ان ذلك الرجل كان أباه بطبيعة الحال ، وكان عليه ان يتوقع ان يحدث هذا يوما من الأيام ، نهض اليكسى وأخـــذ يجوب الغرفة بخطواته البطيئة الثقيلة مستغرقا فى التفكير .. ثم قال بعد قليل :

ـ من رأيى ألا نقطع فى الأمر اليوم ، فلنأجله الى غد ، ونعاود الحديث فيه ، ثم عليك ان تترك الولد الآن حتى يكمل سنتـــه الدراسية ويؤدى الامتحان فى الصيف ، وسأوفده اليك ، فكثير من المسافرين يأتون من الاسكندرية .

أصبح اليكسى الآن يبحث عن حل وسط ، يقنع به الأب برفق وهوادة حتى يؤجل فراقه للصبى بعض الوقت وبعد ذلك ربما جاء الفرج ، لـكن كيفالارى نهض وقال له :

ـ ناد الولد وجهزه للسفر ، لأننى لا أستطيع البقاء وقتا أطول من ذلك ، ولا استطيع ان أعود اليك غدا .

ولمـا لم يحرك العجوز ساكنا أضاف كيفالارى قائلا :

ـ ستناده ، أم أذهب وآخذه وحدى ؟ واذا اثرت المشاكل ، فيجب ان تعلم اننى سأضطر على أسوأ تقدير أن أرجىء سفرى الى الاسبوع المقبل وسأنتزعه منك عنوة .. بأمر النيابة .

وخرج من الباب وصاح :

ـ ســـتاماتى .

جرى اليكسى اليه وقال له :

ـ لا تفزع الولد . انتظر .. سأحضره . سأكلمه . لاتتصرف على هذا النحو . ستأخذه ، طالما تريد ذلك . جازاكما الله على ما اقترفتما ..

وخرج الى باب الفناء وأحضر ستاماتى ، وقال له :

ـ سيأخـــذك أبوك معه ، لمـاذا تنظر الى هكذا ؟ انه أبوك ، كنت تصدع رأسى دائما سائلا عما اذا كان سيعود ، ها هو قد عاد ، هيا ، الآن ، انه مكان طيب حيث ستذهب .. الاسكندرية مدينة أجمل من أثينا .. وهناك أيضا نهر عريض ، مثل بحـر تتدفق أمواجه ، ألم تر فى حياتك نهرا ؟ سترى ، اذن وهنـاك جياد .. جياد أصيلة .. جياد عربية .. وهناك قرود أيضا .. انك ترى هنا أناسا وتقول عنهم انهم قرود ، لـكنك هناك سترى قرودا حقيقية ، وستكتب لى من الاسكندرية ، ستجلس بالليل وتحرر لى خطابا ، بتلك الأحرف الـكبيرة المستديرة التى تخطها فى الـكراسة التى تكتب فيها دروسك ، وسأبعث اليك بالرد ، وتكتب لى من جديد .

وبعد ذلك ، جهز اليكسى حاجيات الصغير بنفسه ، وربطها فى لفافة ، وأعطى لوالده بعض النقود ، وقال له :

ـ هذه للصغير .

عندما رحل كيفالارى برفقة ستاماتى ، لم يستطع اليكسى ان يصحبهما الى باب الفناء الا بكل صعوبة ، كانت ركبتاه المتحجرتان قد دب فيهما الخوار ، ولم يقو أن يقول سوى هذه الكلمات :

ـ رافقتكما السلامة .. سفر طيب .

عاد الى الغرفة بخطى بطيئة ، لـكنه قبل أن يدخل من بابها خر واقعا على الأرض .. جرت خادمة الحظـــيرة واستـدعت الطبيب . جلطة . ومنذ ذلك الحين لم ينهض اليكسى من الفراش .. وزحف الشلل الى جسمه رويدا رويدا ، لكنه كان ســـــمحا فى مرضه كما كان فى أيامه الطيبة .

لم تبدر منه أية شكوى من أى شىء ، كان يتمتم محادثا نفسه فحسب ، ومضت حالته تسوء يوما بعد يوم ، وأخذ لا يتعـرف على من يقترب من فراشه ، وأصبح صمته متصلا .

كانت خادمة الحظيرة تقول لبقية النسوة اللاتى كن يتجمعن عند باب الفناء :

ـ كم يتعذب المسكين ، منذ اسبوعين تقريبا وهو يرى ملاكه وفى بعض الأحيان ترتسم الابتسامة على شفتيه ، لم يكن رجلا شريرا ..

وهكذا لفظ اليكسى أنفاسه الأخيرة ، بينما كان يرى ملاكه طيلة اسبوعين،لكن ماذا كانت هيئة ذلك المـــلاك حتى يبتسم له اليكسى ؟ أكان يشبه أولئك الأشخاص الذين أحبهم ، وأخـــذ الموت منهم بعضهم ، وأخذت الحياة منه البعض الآخر ، أم كان يشبه جياده ، تلك المخلوقات الوحيدة التى استطاعت ان تفهمه ولم تحزنه قط ؟ ..

ليليكا ناكو

صداقة

نيكو أدزامى ، كان هذا اسمه .. وجدوه عند مفرق الطريق بعد بضع خطوات من البنك الأهلى ـ وجـدوه ملقى على الأرض يبكى ، وقع منه عكازه فى الطين ، وساقه عارية مثخنة بالجراح .. كان يناهز الحادية عشرة من العمر ، لـكن الجوع قد طمس معالم سنه ، ذلك الجوع الذى يصبغ الشعر والبشرة بلون مبهم غير محدد . الى جوار الصبى وقف كلب يلعق رجله،وكان الناس الذين تجمعوا يحاولون ان يطردوا الكلب ويرمقون الصبى بنظرات الاشفاق ، لـكنه كان يصيح بين الفينة والفينة « انه كلبى ..! لا تضربوه » !. ومهما أمعن الناس فى طرد الكلب لم يكن يبتعـد عن الصبى .

هذا ما أخبرتنا به فتاة طيبة القلب ، أحضرت ادزامى الى المستشفى فى عربة .. عربة يد رديئة الصنع .. من تلك العربات التى كانت تصنع آنذاك من قطع الخشب المهملة ومن صناديق تركب تحتها عجلتـان ، وكانت تستخدم لـكل أغراض النقل .. كانت عربة من تلك العربات وليدة الفقر والحاجـة ، التى كنت تراها فى شوارع أثينا محملة بالأجولة والبشر والجثث ،

وضـــع ادزامى فى عربة من هذا القبيل ، كان عاجـــزا عن المشى بسبب ساقيه المقروحتين ، فقد كان يعانى نقصـــا شديدا فى التغذية وتدهورا عاما فى صحته .. عربة اليد فى المقدمة ، يدفعها صبى آخر من ماسحى الأحـــذية ، والـكلب وراءهما : ثم الفتاة بعد بضع خطوات .. هكذا وصل الموكب الى المستشفى صبيحة يوم من أيام الربيع .

كانت الفتاة تستعجل الانصراف ، لأنها كانت تعمل فى أحد المكاتب ، أخرجت من جيبها نقودا ودفعت ثلاثمائة وخمســـــين دراخمة أجرة العربة من « أومونيا » الى « رازاريو » وكان ذلك المبلغ يعتبر ثروة كبيرة فى تلك الأيام ، كان العرق يتصبب من جبينها لأنها كانت تعدو طوال الطريق لتلحق بالصبيين .

قالت الفتاة لرئيسة المرضات :

ـ لم يكن بوسعى أن أفعل غير ما فعلت ، وأن أترك الصبى ملقى على الرصيف ..

كانت كمن تريد ان تبرر تصرفها هذا .. وأضافت تقول :

ـ لم يقدم احد على رفعه من الأرض ، كل الناس ينظرون اليه ولا يصنعون شيئا .. كانوا يهزون رؤوسهم ثم يمضون لحال سبيلهم ..

ثم أخفضت صوتها وقالت لرئيسة المرضات التى يبدو انها كانت تعرفها من قبل .. قالت لها كما لو كانت تعترف لها على حين غرة :

ـ وأتى هذا الصبى باشارة من يده مفعمة باليأس والضياع .. اشارة مثل تلك أتاها أبى بيده قبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ! فانتابنى شىء هنا فى قلبى ..

هذا ما قالته الشبـــابة ، كان اسمها ليليكا ـ على ما أذكر ـ

كانت تعطي دروسا فى العزف على البيان ، على حد ما قالته لنا ·· وأضاعت درسا الليلة حتى تنقل ادزامي الى المستشفى ··

يبدو أن الصبى كان قد راق لها أيضا وارادت أن تأخذه فى كنفها . ربما كان قلبها يفيض بالرقة والحنان ، فقد كانت ما تزال شابة .

قالت له : « ابق هنا يانيكو ، وعندما احضر غدا سأجلب لك حلوى .. اجتهد أن تسترد عافيتك . أن تأكل ، وتتقوى وعندما تشفى ، سأعثر لك على عمل ، حتى تصبح ذات يوم رجلا صالحا وشريفا · هل تريد ذلك حتى لا تجوب الشوارع وتألف التسول فيها ؟ »

كان نيكو ادزامى يسمع كل هذا الكلام ، ويهز رأسه ، ولكن عينيه كانت ـ على ما لاحظت ـ منصرفتين نحو الباب · كان جالسا على المقعد الخشبى هناك فى غرفة الاستقبال بالمستشفى · انى أذكر ذلك جيدا .

سألته الآنسة ليليكا التى لاحظت نظراته:«هل تريد الانصراف؟ أين ستذهب ؟ لعلك تعودت أن تهيم فى الشوارع . »

وأجاب ادزامى قائلا : « كلا لا أريد الانصراف . لكن هل اترك كلبى خارجا ؟ » .

وقال له ممرض عابر استوقفه الحديث بين الصبى والفتاة : « كلبك ؟ لاتشغل بالك بالأمر كثيرا . سيتخذ تجار السوق السوداء اللازم فى شأنه ! سيبيعونه على أنه حمل صغير .. وبدلا من أن يأكل .. سيؤكل . »

ضحك الجميع من فطنة الممرض وسرعة بديهته . وقد كانت نكتته من النكات التى تستهوى الذوق فى ذلك الحين . على أن نيكو ادزامى لم يضحك قط · طأطأ رأسه وزادت نظراته انخفاضا ،

لا أعرف ماذا فعل بوجهه فبدت عيناه محاطتين بمئات التجاعيد كما لو كان عجوزا طاعنا فى السن . اجل لم يضحك . بل استغرق فى التفكير ، وعاود التطلع الى الباب .

فى تلك الساعة دخل احد الأطباء . نظر الى نيكو ، وفهم من أول نظرة مما يشكو .

قال : « بيلا جرا »

وهذا ايضا مرض من امراض العصر الذى نعيش فيه . يعانى الجلد أول الأمر ثم يتشقق وتظهر الجروح . لكن اذا بادر المرء الى أكل البيض وزيت الزيتون ، وشرب اللبن ، يشفى وتندمل الجروح .

لكن من ذا الذى كان بقادر أن يشرب لبنا،ويأكل بيضا وزيتا؟ زيتا من أشجارنا ! ومن أين لادزامى المسكين أن يجد هذه الأشياء ؟ كان هو الآخر من « بيريه » ومن كانت تقذف بهم بيريه الى اثينا كانوا اشد جوعا وبؤسا .

ومضت رئيسة الممرضات فى أسئلتها المألوفة :

ـ والدك ووالدتك ؟

ـ فقدتهما .

ـ أخوتك ؟

ـ ليس لى أحد .

ـ بيتك ؟

ـ كنت أبيت تحت أطلال عشة فى صحبة كلبى الذى يمنحنى الدفء ويؤنس وحدتى .

ـ حسنا ، اذن .

ولم تجد رئيسة الممرضات ما يمكن أن تسأله عنه غير ذلك .

ـ اجلس هنا .. سيأتون ليحلقوا لك رأسك ، وتستحم ، ثم يحملونك الى السرير ، ويحضرون لك الطعام .

وقالت له الآنسة ليليكا :

ـ ستصبح نظيفا . لاتحاول الفرار من هنا حتى تلتئم جراحك هل تسمع ما اقول لك ؟

وأومأ ادزامي برأسه موافقا وقال :

ـ حاضر .

لكن نظراته ما لبثت أن اتجهت الى الباب .

قلت لنفسي « لابد أنه يفكر في كلبه » وعندما مررت فيما بعد من الممر امام الطابق الأرضي رأيت فعلا كلبا ابيض من كلاب الشوارع ينتظر ازاء الباب مثلما ينتظر الانسان .

كان يتلفت حوله قلقا ، وقد لمع الذكاء في عينيه ، ليرى من يدخل ومن يخرج . وكلما فتح الباب حاول أن يمرق الى الداخل ، لكنه سرعان ما كان يطرد فيعود الى وقفته المترقبة .

قلت لنفسي بسرعة ، لابد أنه كلب ادزامي ، رفيقه الذى أمضى معه فصل الشتاء ، ذلك الشتاء المخيف قارص البرد الذى لم تر اثينا شتاء مثله من قبل . ومر الاثنان بخاطرى : الصبي والكلب يقضيان ليالي الشتاء الضارية متعانقين في العشة المهدمة التى كان يدخل اليها البرد والريح من كل مكان . ومثل أمام ناظرى المشهد خارج بيريه كما اعرفه ، قاحل ، اكئيب ، وعلى مبعدة بضعة تلال حجرية جرداء ، وبضعة مصانع معدمة ـ وابعد من ذلك بكثير نحو « مارى جرجس » البحر الذى كان يهدر بدوره في أعماق الليل

والخلاء . وهذان المخلوقان من مخلوقات الله فى عزلتهمـا تحث اطلال عشة مهدمة فى الظلمة . يصفهما ريح الشمال ، فيحتضن احدهما الآخر بشدة ويلتصقان حتى يواجهان معا البرد والخوف . مخلوقان من مخلوقات الله : أحدهما نيكو ادزامى والتانى كلب من كلاب الشـوارع .

جلس الكلب هناك وقتا طويلا ومضى ينتظر . عندما مررت مرة أخرى من الممر ــ بعد أن قضيت بعض الأعمال فى الجناح الآخر من المستشفى ــ رأيته مازال واقفا لم يبرح مكانه . كان ينتظر . لم يكن يريد الانصراف .

لعل الكلب مضى ينتظـــر وقتا طويلا بعد ذلك . لعله انتظـر ثم استبد به اليأس . فصديقه لم يعـد ، ولم يبد له أثر . ربمـا قرصه الجوع فمضى يجر خطاه منصرفا . ربما هام محنى الذيل من شارع الى شارع الى أن ينزوى بدوره ذات صباح وحيدا مهمـلا وبلا أمل فى أحد الأركان ويموت . كان هذا مصيره ، كما هو مصير كثير من الكلاب وكثير من البشر أيضا . أن يموتوا مهجورين مهملين فى أحد الأركان . كم من كلب وكم من انسان رأيناهم يموتون فى ذلك الشتاء على قارعة الطريق ! وكانت عيون الكلاب مفعمةبالانتظار وهى تترقب الموت ! لا يطرف لها جفن ولا تضطرب ، عدا الفخذين، فربما ارتعدتا قليلا من البرد.وعلى مقربة منهافى الطريق يتـدفق الخضم الرحيب من جموع البشر الذين يهرعون مضطربين وقـد ارتسمت على قسماتهم امارات القلق ، يحاولون العثور على طعـام يشترونه ، ليأكلوه هم وأولادهم ، قبل أن يتكوموا بدورهم فىركن من الأركان وينتظروا الموت .

ولئن كان كلب ادزامى قد عاش حتى الآن ولم ينفق جوعا مثلما نفقت كل الكلاب الأخرى فى أثينا وبيريه ، فلأن الصبى الصعلوك

ادزامى كان سيده ، وكانا يتقاسمان معا لقمة العيش كل يوم ، أما الآن فمن ذا الذى سيعطى لكلب ادزامى ما يأكله ؟

ربما دارت كل هذه الأفكار فى ذهن نيكو ادزامى عندما كانوا يحلقون له شعره ويعدونه للاستحمام . هذا ما كان يقلبه ادزامى فى رأسه .

« ماذا أريد هنا وسط الزفرات والصياح وعويل الأطفال الذين يستحمون ؟ عما أبحث وسط هذه الجلبة والناس الأغراب بمقصاتهم وقطع الصابون فى أيديهم ؟ وياالليل من سيكون الى جوارى يسلينى ؟ « وبوبى » ، ماذا سيفعل وحده ؟ واذا عاد الانجليزى الذى أعطانى الكلب ، بوبى ، وطالبنى به ماذا سأقول له ؟ لقد أكلت عيشا كثيرا عنده . كنت أنظف له حذاءه . كان صندوقى مازال معى . لم يكن قد سرقوه منى بعد . وعندما رحل ترك لى الكلب وقلت له « أول رأيت ، يس ! سافر مطمئن البال ! سأحافظ على كلبك ، لأنى أحب الحيوانات ! »

وتم التفاهم بين الانجليزى والصبى بالرغم من أنهما لم يكونا يعرفان لغة مشتركة يتحدثان بها .

طاف كل ذلك بذاكرة نيكو ادزامى أثناء حلاقة رأسه ، بالآلة الصغيرة ذات الموسى الحادة . طاف كل ذلك بذاكرته رغم تألمه أثناء الحلاقة لأن رأسه كانت بها قروح ، وأطلق الصرخات .

كم كان أولئك المشرفون على المستشفى لا يحسنون عملهم ! بدلا من ان يعطوه طعاما ليأكل اجلسوه وحلقوا رأسه . ألم يكن ذلك سببا ليدب النفور فى قلب صبى التقط من الشارع وجىء به الى حيث قيل له أنه سيكون أحسن حالا ؟

دب النفور فى قلب أدزامى بدوره وخاف ، كما أرقه القلق على كلبه . وصار كالحيوان الحبيس يتربص باللحظة التى ينطلق

فيها هاربا . ولعن فى سره تلك التى غررت به وأتت به الى هنا .
وفى لحظة كان الجميع من حوله منشغلين عنه وذلك عندما تركه الحلاق ليتولى أمره المرض الذى سيغسله ، أختفى ادزامى عن انظارهم ، وبخطوات عرجاء أفلت منهم .

مضى يتخبط بعكازيه متلفتا يمنة ويسرة ، ينهش الخوف قلبه خشية أن يروه . وخرج الى فناء المستشفى الذى كان غاصا بأناس يتدافعون ويصيحون ويستجدون مكانا وسريرا بالمستشفى. فى خضم هذا الصخب لم يكن احد لينتبه الى ادزامى .

وقال ادزامى لنفسه : « هاهى فرصة طيبة لأهرب وأخرج من هنا ! » .

عند الباب فحسب صاح فيه البواب قائلا : « انت يا ولد ، أين تذهب ؟ ألم يسمحوا لك بالبقاء ؟ »

وأومأ الصبى برأسه علامة النفى ، وأسرع بالافلات من الباب المفتوح الى الشارع الرحيب. ستسألوننى كيف وجد ادزامى فى نفسه القوة الآن ليمشى على قدميه بينما لم تكن له هذه القدرة عندما احضرته الآنسة ليليكا محمولا على عربة ؟ هيه ، هذه ألغاز تعودنا عليها نحن الذين نتعامل مع الأحداث المشردين . ففضلا عن مكرهم الشديد ، وفضلا عن رقادهم وادعائهم المرض ، عندما يريد أحد أولئك الصبية أن يهرب من المستشفى ، فانه سيجد لنفسه الوسيلة حتى لو كان على شفا الموت ! ان الخوف ينبت للخائفين أجنحة .

وعندما نزلنا نحن الممرضات لنأخذ ادزامى كان قص ملح ذاب !

بحثنا عنه هنا وهناك ـ لكنه كان قد اختفى !.. نادينا عليه وخرجنا الى الفناء ، لكن لم يكن ثمة جدوى .

وقال أحد الممرضين ضاحكا « لابد انه هرب مثل ذلك الصغير

الآخر الذى جلبوه على نقالة بين الحياة والموت » . ثم تمتم يقول لنفسه : « وهل تحبس العصافير فى القفص بسهولة ! » .

وعندما جاءت الآنسة ليليكا بعد الظهر ولم تجد الصبى كان حزنها لا حد له . « راح تعبى ، والدرس الذى فوته على نفسى من أجله . » .

وصاحت رئيسة الممرضات :

ـ أهذه أحوال تسر فى هذا المكان ؟ .

واردفت تصيح من جديد .

ـ أهكذا أذن ترعون الأولاد ؟ .

وهمهم الممرضون قائلين :

ـ كأنه أول ولد أو ثانى ولد يهرب منا ، ألا تعرف أن أولاد الشوارع من الصعب أن ينصلح حالهم ؟ لماذا تصيح ؟ ألف هؤلاء الصبية حياة الصعلكة .

وانتهز الحلاق الفرصة ليروى كيف أن أحد الصبيان فر من يديه ذات يوم وهو يحلق له . فر فى اللحظة التى استدار يتناول فيها المقص ، وأفلت برأسه نصف محلوقة .

راح اذن ادزامى . وضحكت احدى الممرضات المكلفات بغسل الأولاد وقالت :

ـ ماذا تنتظرون من صعلوك مثله ؟ .

كان يمكن أن تنتهى حكاية ادزامى عند هذا الحد . تنتهى هكذا بكل بساطة ، مثل كل حكايات الناس والحيوان أيضا ، التى تصل

الى نقطة ما ثم تتوقف . وتمضى فى طريقك ، وتنصرف الى حياتك وتنساها . لكن فى بعض الأحيان وبلا أدنى سبب ، تتذكرها فجأة فينتابك الشجن لما تقصه تلك الحكايات الحزينة عن الحيوان ، وعن البشر ، ثم لا تلبث ان تحاول نسيانها من جديد حتى تقوى على الحياة ، وتنجح فى نسيانها . على أن القلب يظل ثقيلا ويزداد ثقله كلما تقدم به الزمن .

لكن حكاية أدزامى لم تكن لتنتهى بعد . ذات ليلة ، فى ساعة متأخرة ، كنت عائدة من عملى وحيدة ، أذرع الشوارع المظلمة مسرعة ؛ بل كنت أجرى . كنت أجرى فى الظلمات المخيمة على شوارع أثينا . وكانت تدوى فى اذنى تلك الصيحات المخيفة التى كان يطلقها الجياع والتى كانت تشبه مواء القطط . كنت أسمع عبارة « انا جوعان » تنطلق من الأفواه فتزلزل اعماق القلب ، ويتراءى البشر يهيمون مثل أشباح فى الجحيم كتبت عليها اللعنة ، يئنون ويتخبطون فى مشيتهم كالسكارى ثم يسقطون فجأة على الأرض ويصمتون .

أجل ، فى ليلة مثل هذه ، أثناء عودتى من المستشفى ، وكنت أحذر فى مشيتى أن ارتطم بجسد انسان ملقى على الأرض ، وأمسك فى يدى مصباحى موقدا ، رأيت مشهدا غريبا ، هناك على عتبة كنيسة القديس ذيونيسى .

صبى منكس الرأس يبكى بحرقة ، وقد ضم شيئا الى صدره وقلت لنفسى لعله يحتضن طفلا ، لكننى عندما اقتربت منه وصوبت ضوء المصباح اليهما تبينت أن الصبى غارق فى الدماء وأن الذى فى حضنه ، واعتقدت انه طفل ، كان كلبا .

كان الصبى حزينا لايعزيه شىء . وكان الظلام من حوله دامسا

وشعوره بالعزلة مريرا ، وهو يذرف الدمع مدرارا في أعماق الليل البهيم . كان كل شيء أليما موجعا يمزق القلوب .

وقفت وسألته :

ــ هل بك ألم ؟ هل ضربك أحد ؟ لماذا تبكى ؟ .

لكن الصبى لم يجب ، واشتد نحيبه . وأصررت على السؤال.

وأجابنى الصبى فى النهاية دون أن يرفع رأسه .

ــ لم أضرب أنا . صدموا كلبى ! . ومضى فى النحيب .

ــ قتلوا كلبى ! الا ترين ؟ مر موتوسيكل منذ قليل ، وصدم كلبى ! آه ، لو كنت سمعتيه كيف كان يعوى ! جريت وأخذته بين يدى . . لكن ها هو الآن قد صمت ، لابد أنه مات . . .

وعاود الصبى البكاء والنشيج .

قلت له :

ــ تعال معى .

أتى الولد بحركة من يده تنم على اليأس والضجر ، ذات تلك الحركة التى لفتت انتباهى اليه فى المستشفى عندما أحضر اليها ، كما أثارت اشفاق الآنسة التى عثرت عليه أول مرة .

وعدت أقــول له :

ــ تعال معى .

لم أتلق أية اجابة من الصبى . كان ماضيا فى البكاء منكبا على الكلب الممسك به فى أحضــانه .

ـ وماذا ستفعل الآن ؟ . . . هل ستظل متشبثا بالكلب هكذا ؟ دعه وتعال معى . .

رفع عينيه ونظر الى . لكن عندما تبين لباس المستشفى الذى كنت أرتديه ، خاف وهم بالابتعاد .

أمسكت به من يده وقلت له :

ـ انتظر . لا تنصرف . أعرف أنك أدزامى . لن أذهب بك الى المستشفى . تعال الى بيتى ، معى . دع الكلب فى ركن من الأركان ماذا ستفعل به ؟ لقد مات . ألا ترى ؟ .

لكن الولد ما أن سمع ذلك حتى زاد انفعاله ، وصاح :

ـ أبدا ! أبدا ! لن أدعه قط ، لن يلقى فى الشارع ولن يرمى فى القمامة . سأذهب لأدفنه فى المنتزه الكبير حيث نمنا أمس ، وحيث كنا ننام مؤخرا متعانقين تحت احدى الأشجار .

وخنقت العبرات صوته . .

ثم أردف يقول :

ـ وكل ليلة سأذهب لأنام هناك ، حتى لا أتركه وحيدا .

نطق ادزامى بهذه الكلمات على عجل ، لاهثا ، كما لو كان قد جرى شوطا بعيدا ، وبغضب أيضا . وقد ارتسم على وجهه تعبير من اليأس الوحشى ليس بامكانك أن تتصوره منطبعا على وجه صبى صغير مثله .

ثم نزع نفسه من يدى بعنف واختفى فى ظلمات الليل محتضنا كلبه المقتول متشبثا به . اختفى من أمامى كشبح صغير من أشباح الجحيم . وكان من الصعب العثور عليه بعد ذلك .

تاتيانا ستافرو

معجزة
لقاء
الإنسان
للإنسان

سألت الأخت الكبيرة بعصبية :

ـ والآن ، ماذا ترين أن تفعلى ، بعد كل هذا ؟ ستدافعين عن شرفك مثل تلك البطلات القديسات فى الحكايات القديمة ! .

وبدلا من أن تجيب الأخت الصغيرة ، همت ان ترتدى قلنسوتها لكنها لم تكمل حركتها . سقط ذراعاها ثقيلين الى جنبيها .

ـ وهل كان يتصور أحد أن تحدث أمور مثل هذه ، أمور كتب لنا عنها منذ قرون وقرون طويلة ، أعنى ، ان يترك المرء ، أقرب اقربائه ، ذلك الذى يحبه ـ يتركه للخوف المهول ، للموت، للسجن بينما كان بالامكان أن ينقذه لو لم يخش التضحية فحسب .. لو لم يخش أن يصاب بالأذى فى جسمه .

ـ استحلفك بحياتك ، يا هيلينى ، اسكتى . لا تمضى فى هذا الحديث ، طالما تعرفين اننى لن اترك فرصة مثل هذه تضيع .. وهى أملنا الوحيد ..

انطفأ وميض القلق الغاضب في النظرات السوداء ، واغرورقت عينا المرأة بالدموع الحارة .

ـ آه ، لو كان بامكانى أن أخلصك من هذه التجربة لما ترددت فى ذلك .. بلا أدنى شك ..

ـ وهو منفر ومخيف الى اقصى حد ... جبل لاحس فيه . جبل من الجثث المسودة .. يداه وحدهما مكتزتان بشحم يزيد فى مقداره عن كل اللحم الذى بجسدى .. وذلك الصوت المطوط الذى يخـرج من أنفه ..

أتت الأخت بحركة يائسة ، قذفت بخصلات شعرها الغزير الى الوراء ، ودفنت وجهها بين راحتيها ، ثم قالت بصوت عذب خفيض ، يكاد يسمع :

ـ حتى تكون تضحيتك أشد وقعا ، حتى يكون الثمن المدفوع لقاء حياتهما أغلى .

وفى ومضة ارلدت مارو النحيلة القد معطفها وقلنسوتها بعزم أكيد ، كما لو كانت قد تلقت العون من قوى غامضة غير محدودة . وقد بدا فى نظراتها القلق والعناء والألم بكل وضوح .

ـ ربما تكونين واهمة أيضا ، ربما لا تدور هذه الأفكار بخلـد الرجل .. لقد قبل أن يساعدنا ما ان طلبت منه ذلك ..

أخرجت الفتاة الورقة دون أن تجيب بشىء ، وعادت تقرأها . ترام رقم ٧ . محطة ايفانجيليزمو . شارع رافينيه .. أما بقية ماكان مكتوبا فكانت تذكره دون حاجة الى قراءة «الباب الرابع» على اليسار ـ حديدى ـ تنزلين درجتين ، وفى الخلف تجدين بابا صغيرا مختبئا فى أحضان الزرع الأخضر » آه ، كان قد انغرس فى اذنيها الصوت المطوط وهو يقول « فى احضان الزرع الأخضر » ـ ذلك الصوت الرفيع الخـــارج من الأنف الكبير بنبرة مضحكة ، مضـحكة .

ـ لماذا يحدد للمقابلة بيته المنعزل ، بدلا من أن يحدد لذلك محلا

عاماً ظاهرا للعيان ، لو لم تكن لديه مثل هذه الأفكار الخبيثة ، خطرت هذه الفكرة ببالها ، وأحزنتها ، لكنها لم تنبس بكلمة . ان الكلمات تزيد ما في النفس من مرارة ، ثم ان الكلمات زائدة عن الحاجة ، وغير مجدية في الموقف الرهيب الذى كانت توجد فيه .

عندما وصلت الأختان الى الباب الخارجى تعانقتا فى يأس . « من ذا الذى كان يتصور مثل هذا الأمر ؟ من ؟ » تأوهت الأخت الكبيرة ، وندت منها هذه العبارة ، ناسية فى لوعتها كل ما كانت تقوله من قبل .

– ماذا يهم وسط كل هذه التعاسة ان تتجعد الوردة .. أى دور ألعبه ، أنا نملة الأرض الصغيرة ..

لم تكمل ما أرادت أن تقوله . واسرعت الخطى دون أن تلتفت وراءها .

***

كان الوصف الذى أعطاه « سيادة المدير » على غاية من الدقة حتى ان الفتاة لم تلق مشقة فى الوصول الى العنوان ، بل انها لم تجد نفسها بحاجة حتى الى الرجوع لتلك الوريقة . ها هو الباب ذو الأعمدة الحديدية ، وقد وجدته مواربا ، ها هى الدرجتان و « أحضان الزرع الأخضر » ، كل شىء فى مكانه ، وبالاضافة الى ذلك بلل مطر رطيب متقطع ، الياسمينة البرية ، غسلها من التراب ولكن عينى مارو لم تريا مع ذلك فى ضوء الشتاء شيئا .

– أهلا بك .. وسهلا .. الجو دافىء هنا بالداخل .. أرجو الا تكونى قد لقيت عناء فى المجىء ياطفلتى !

– أوه ، على الاطلاق ..

كان قلبها يهدر بشدة فيمنعها من أن تسمع جيداً . تسمرت

قدماها هناك عند المدخل ، الى جوار المدفأة العالية السوداء التى يشع منها الدفء ، ولم تقدما على خطوة أخرى .

على أنه بدوره لم يدعها الى ذلك ـ قال وهو يرتدى معطفه وقبعته : لنذهب ، لنذهب بسرعة ! ثم فتح غطاء المدفأة الصغير ، وألقى ضاحكا نظرة على الجمرات المتقدة ، وأغلق الغطاء أجال بصره فيما حوله . ادار مفتاح النور ، وأطفأه . بقى الاثنان برهة صغيرة جنبا الى جنب يغمرهما الدفء والضوء الخافت . وفى السكون المخيم كاد يسمع قلب المستخدمة الشابة وهو ينتفض .

وشعرت بيده الثقيلة على كتفها :

ـ لنذهب ، ولنبتهل أن يأذن لنا بمقابلته ، وأن يكون مزاجه رائقا أيضا .

رنت المفاتيح عندما سقطت فى جيبه ،وجلجل الباب الخارجى الحديدى عندما أغلق وراءهما ، الا أنهما عندما خرجا الى الشارع الصغير المهجور لم تر الفتاة أية غضاضة فى أن تمسك اليد الغليظة المكتنزة « بشحم يزيد مقداره عن جسمى كله » ، تمسك بذراعها وتساندها فى السير . بل أنها شعرت بالرضاء فيما بعد ، خلف عمائر المستشفى الذى لم يكتمل بناؤه ، حيث يتسلل الهواء بين جنباته داخلا خارجا مصفرا ـ شعرت بالرضاء لوجود الرجل الى جوارها ، يذود عنها العزلة ، ويبعث الدف فى أوصالها .

سارا مسرعين . وفى كل خطوة كان يسمع صليل المفاتيح فى جيب الرجل . وقالت مارو لنفسها « يفصل الترزية الجيوب حسب عرض السروال .. ترى كم حجم جيبه ؟ .. لابد انه فى حجم المخلاة ، أو ربما أكبر من ذلك . لكنه ليس ثقيل الظل .. يبدو فى المكتب بمظهر آخر .. كلا ، إنه ليس ثقيل الظل » .

ـ أحيانا ، فى مثل هذه الأحوال ، يتدلى النجاح من خيط رفيع .. طلبت منك أن تأتى معى ، لكن عليك أن تطبقى فمك ،

ولا تتكلمى ، تمالكى نفسك بأنفة .. انه شخص شديد البرود ، صموت ، ومتعال .. أرجو فحسب أن يستقبلنا ، وألا يكون قد انصرف ..

ندت منها صيحة قصيرة خائفة بددت السكينة المخيمة :

ـ لكنه جاء اليوم فحسب !

ـ لا تصلح التخمينات .. لا يعرف أحد متى يأتى ومن أين يأتى ، متى يسافر ، والى أين .. انه شخص غريب الأطوار ، منطو ، صموت .. ما من طريقة تمسكينه بها .. لا أحد يعرف فيما يفكر .. ما هى مشاعره .. هل داخل الحزن قلبه قط ..

أدركت مارو أن الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرئيسها . ولئن كان قد قبل أن يتوسط فى هذه المسألة الشائكة ، الا أنه كان يشعر بالحرج فى قرار نفسه من أن يلتمس طلبا ، وعلى الأخص طلبا مثل هذا ، من ذلك الألمانى العنيد . واذا كان رئيسها يمضى اليه الآن فالتردد والشك يملآن قلبه . كانت تشعر بذلك ، وتشعر به بكل وضوح ، كما لو كان ينقل هذا الشعور اليها نبضات جسمه القريب منها . كان يفعل ما يفعله من أجلها بدافع من الطيبة والمشاركة القلبية . أجل ، بدافع من ذلك ، ولا شىء أكثر منه . كانت مخطئة ، لم يكن ثقيل الظل ، ولا فظا ، مثلما كانت تراه من قبل . لم يكن كذلك قط .

***

لم تتبين فى أى درب دخلا بعد أن اجتازا الميدان ، ولا الى أى طابق صعدا فى ذلك المبنى المظلم . لم تشعر الا برنين الجرس يتردد صداه ويتكاثر فى أحشائها ، ويسرى الانحلال فى ركبتيها .

جازاه الله خيرا ، فقد سندتها مرة أخرى اليد الغليظة ، يد الرجل المفعمة بالدفء ، بل وحدث شىء لا يصدق ، أحست بالرضاء

واليد تضغط عليها . لم يكن الأمر سيئا ، أوه ، لم يكن سيئا على الاطلاق .

فتح عامل الباب الذى يرتدى زيا عسكريا ـ فتح الباب على مضض ، لكنه لم يلبث أن انتصب فى وقفته ما ان تبين وجه الرجل .

ـ والآن ، تشجعى ، يا صغيرتي .

تمتم المدير بذلك ، نفذت كلماته الى قلب الفتاة وأدخلت عليها السكينة . بدا لها صوته الرفيع المطوط ، وهو يخرج من أنفه بطيئا متثاقلا ، مفعما بالطيبة والعطف ، وبالقلق أيضا .

وفى غرفة الاستقبال خافتة الضوء ، وقفا جنبا الى جنب من جديد ، لا يجرآن على الافتراق ، لأنهما أحسا فجأة بأن كلا منهما يجد الحماية فى قربه من الآخر . وعندئذ ، فى السكون المخيم ، فتح بجلبة واحدا من الأبواب الكثيرة من حولهما ، ودخل « الممثل الاقتصادى للرايخ » أحست مارو بعينيه الذهبيتين تخترقانها كما لو كانت جسما زجاجيا ، لكن دون أن ترياها ، فلم تتوقفا حتى لحظة قصيرة عندها . لكن اليد المجاورة شدت على يدها دون أن تقشعر من هذه اللمسة التى كانت تكرهها من قبل ، والتى كان مجرد التفكير فيها يثير مخاوفها .

كثيرا ما تبدو الأمور مختلفة عن ذى قبل عندما نعاينها عن كثب . تبدو جد مختلفة ، حقا .

ظلت مطرقة العينين ، خشية أن تعرقل مجرد النظرة الجهاد الشاق الذى يخوضه المدير ، وقد أيقنت انه بكل جوارحه لها فى تلك اللحظة . كان يحكى الأحداث التى وقعت أثناء الجنازة فى « ترابيزا » ، كيف جرت الاعتقالات ، وكيف خيم الحداد على المدينة كلها فى أقل من ساعة ، ثم لهفة كل امرىء الى تخليص ذويه من المطاردة الجائرة ، وربما من الموت .

كان يتحدث عن زوج هيلينى ، وعن الأخ فاسو ، عن الاثنين معا . كان فاسو شقيقهما الأصغر ، وكان طيب القلب لايحتج عندما تضربه أخته مارو الأكبر منه . لم يكن يغضب عندما كانت تطبق قبضتها وتهوى بها على ظهره . بل كان يعقد ذراعيه عندما كبر ، ويحنى كتفيه ، ويقول معتزا بنفسه ضاحكا ، اضربى ، اضربى ما شئت ، حتى تكلى ، حتى توجعك يدك ، يا أختاه .

والآن ، تتعرض هاتان الكتفان الشجاعتان ، وهـذه الرأس الشابة ذات الخصائل الغزيرة لأن يثقبها ذات صـباح رصـاص البنادق الاوتوماتيكية التى تشرعها فرقة الحراسة ــ تتعرض لأن تسقط ، وتخر صريعة .

وسقطت هى ذاتها فى هدوء هناك بين أقدام الرجلين ، حتى ظل الاثنان دهشين لحظة . ثم حملها الألمانى ، وهو أكثر شـبابا وخفة ، وأرقدها برفق على الأريكة .

ومضى الألمانى يقول ، وهو يتفحص ويتفحص رسغ الفتـــاة النحيل قاصدا أن يعثر على نبضها الواهن :

ماذا حدث لها ، ما الذى أصابها ، هل تحتاج الى طبيب ؟

بدا مرتبكا ، مبلبل الخاطر ، وقد غلبت عليه انسانيته ، ولم يبد على الاطلاق صموتا ولا غريب الأطوار .

ــ وضح لها من فضلك اننى لن أغفر لنفسى قط سـهوى .. تركت سيدة واقفة .. لن تغفر لى حتى هى ذلك أبدا .

ويبدو انه نسى تماما مقامه العالى ، ومنصبه الكبير ، فقد جرى « الممثل الاقتصادى لألمانيا » وأحضر ماء عطريا ، وبلل جبينها بمنديله الناعم الثمين :

ــ هل تشعرين بتحسن ؟ ماذا أصابك ، ماذا أصابك ؟

وعلى الرغم من أن الفتاة لم تكن تفهم الكلمات ، فقد أحست بمعناها تماما .

ـ ماذا أصابني ؟ تسألني ماذا أصابني ؟ أن ما أصـابنا مخيف الى درجة أننا لم نعد نحيا منذ ذلك الحين .. انتزعوا منا رجلين ، نفسين ، مخلوقين حبيبين .. منذ ذلك اليوم وأمنا لاتنام فى سرير انها ترقد بالليالى على الأرض ، على البلاط ، حتى تتعذب بدورها مع ولديها .. ولا ننصب مائدة للطعام ، لأننا لانتحمـل أن نواجه مكانيهما الشاغرين .. ومن فرط القلق لا نستريح .. اننا نجرى مثل المجانين ، عاجزات عن أن نعرف ماذانفعل .. كيف نسـدى العون .. والخوف من الموت يطاردنا ..

كانت تتكلم وهى تشد يديها على،فمها حتى تحول دون‌ارتعاش شفتيها . كانت تريد أن تسكت ولكنها لم تعـد بقـادرة على الاحتمال . يبدو أنه كان محتوما أن تقول كل هذا الذى لم تفتح به فمها وتبوح به لأحد من قبل . كان من المحتوم أن تقال الكلمات التى كانت تغلى وتتدافع وتخرج ممزقة الأحشاء مثل الطفـل عندما يولد .

وهناك ، الى جوارها ، فى هدوء ووضوح مثل آلة موسيقية مصاحبة رافق الصوت المطوط المضحك ـ صوت المدير البدين ـ باللغة الأجنبية كلام الفتاة المتدفق وفى تلك اللحظة ـ وهـو الأمر الغريب حقا ـ بدا ذلك الصوت وكأنه الصوت الوحيد فى الوجود القادر على أن يعبر بتلك الطلاقة عن الألم الممض وراء تلك الكلمات المفرطة .

***

تلقاهما الليل مكدودين ، متعبى الفكر من عناء الانفعال ،وبللتهما السماء برذاذ خفيف لا يرقى الى مرتبة المطر . توقفا برهة ليستردا أنفاسهما ، ولم ينبسا بكلمة واحدة ، حتى ابتعدا بما فيه الـكفاية عن المبنى الاسود .

ـ أصر على أن يفرج عن هذين الشخصين فورا .. لا يمكن أن نبدر الشقاء والدموع اينما مررنا .. انهما بريئان ، انى لمتأكد من ذلك .. متأكد .. ارسلوا ملفيهما هنا حالا .. حالا .. لا استطيع أن احتمل أكثر من ذلك ..

عادت هذه الكلمات الى ذاكرة السيد المدير . رددها وهما يحتميان من رذاذ المطر تحت شرفة خفيضة وقد التصقت بطنه المطاطية الضخمة بجسم الفتاة النحيل الصغير الذى يرتعد عذابا وأملا . وكم كان جميلا الاحساس بأنه يشد من أزرها عند ذلك الحائط الغريب ، ويدفئها مثل حضن أم رؤوم ، ويمدها بالقوة على تحمل وطأة السعادة الطارئة .

.. أماه .. هيلينى .. كان كيانها كله ينتفض مثل طائر يصفق جناحيه .. أماه .. هيلينى .. غدا !

كانت هذه الكلمات .. هذه الكلمات دون غيرها .. تجول فى دمائها سريعة .. وحيدة .. لا رفيق لها .. وقد اكتست معنى جديدا ومخيفا ايضا .

.. غدا ! غدا ! توالت النبضات فى الفودين ، عند الاسنان المطبقة تزاحمت مقاطع الكلمات ثم وئدت خشية أن تخرج فتغمر سماء الليل .

.. غدا ! كم من الساعات غير معقولة الطول ستمر حتى صباح اليوم الجديد ، أو حتى الظهيرة ، أو المساء فى نهاية الأمر ، طالما أن المساء الطويل يمكن أن تحسب ساعاته ويستوعب من خلال ذلك « الغد » السحرى .

سرى اليهما من المقهى المجاور احساس بالالفة . كان يفتح الباب بين الفينة والفينة وينسكب شريط أصفر من الضوء يلطف من كثافة الظلمة التى تفرضها الحرب .

ومع ذلك الشريط الأصفر تسللت سحائب دخان وشذرات من أحاديث ، اختلطت بأنفاس عبقتها روائح القهوة ولفافات التبغ . كلما انفتح باب المقهى انسكب الى الطريق دفء حبيب ، الدفء المعزى الذى يصاحب التقاء الانسان بالانسان .. وفى ذات الوقت مضت شفتا الرجل المكتنزتان تلاطفان على مهل جبين مارو الرطيب ، ثم جفنيها الرقيقين ، الواحد تلو الآخر ، ثم شفتيها المرهفتين ، بحذر وحب وخشوع .

وقد تقبلت الروح الجزعة من أعماقها مثل بلسم متلهف اليه ، تقبلت ذلك الحب المختلط بالرغبة ، وتلك المراودة .

وفيما بعد ، عندما عادت بهما سيارة مثل مركب أسود خرب الى الباب الضيق ، هناك « عند أحضان الزرع الأخضر » ، بدت الأمور مختلفة عما كانت قد جزعت منه مارو .

آه ، يا للغرابة ، لم يكن الأمر سيئا ! آه ، لم يكن الأمر سيئا قط ..

ماريا روسيا

جارتان

في الخامسة من مساء كل يوم كانت جارة السيدة ماريغو تنزه كلبها الصغير ، فكانت تروح به وتغدو تحت نوافذ جارتها . وقد كان كلبا مرفها كثير الحركة ، يحمل فى عنقه ، رغم هزاله ، طوقا ثمينا .

كان يمرق كالسهم ثم لا يلبث أن يستدير بغتة ويقبل على سيدته مندفعا ، ثم يبتعد عنها من جديد هازا ذيله ويقف فى انتظارها فاذا ما لحقت به مضى يتشمم الأركان حتى يختار البقعة التى تروقه ليرفع ساقه عندها . وعندئذ كانت تنتظره هى . ثم لا تلبث وكلبها أن يدخلا باب العمارة ويغيبا عن الأنظار .

وبعد قليل كانت تتصاعد الأنغام من بيان هذه الجارة . كانت تتكلم وتغنى بصوت لا يتفق مع مظهرها وعمرها ، شأنها فى ذلك شأن بنات جنسها .

وعندما كانت السيدة ماريغو تسمع تلك الأنغام مصحوبة بغناء جارتها الساحر كانت خطواتها تتحول الى خطوات راقصة . فاذا ما تشابكت الأنغام وتعقدت وقفت مرفوعة القدم مبهورة الأنفاس .

وعندما تنتهى الأغنية كانت السيدة ماريغو تعود الى عملها خفيفة لينة متهادية .

كان هذا شأنها كل يوم . وهاهى الشهور والسنين قد مرت وارتبطت حياتها بحياة جارتها ، رغم أنهما لم يتعارفا ، ولم تتلق السيدة ماريغو منها تحية الصباح قط ، ولا تعرف عنها شيئا سوى اسمها . اسمها ميسمير .

كانت السيدة ماريغو تقرأه فى نزولها وصعودها ، فقد كان هذا الاسم مكتوبا على اللافتة البرونزية المثبتة بمسمارين لولبيين على باب شقتها النظيف ، ذلك الباب المغلق على الدوام فى وجه جميع سكان العمارة . وكم كانت السيدة ماريغو تود لو تخطو الى عتبة جارتها .

وذات أصيل خرجت السيدة ماريغو الى شرفتها كعادتها لتتنسم الهواء ، فوقع بصرها على جمع من الناس ينجذب اليه المارة انجذابهم الى مغناطيس .. ووقفت السيارات عنده أيضا . وسرعان ما اكتظ الشارع وتعطلت حركة المرور .

كان الجميع يومئون مشيرين فى حزن ، ويهزون رؤوسهم فى اكتئاب وقد تهدلت أذرعتهم ، بل اغمى على امرأة واحمرت وجوه الرجال حنقا .

وأقبل الشرطى فى النهاية يجرى ، وبسط ذراعيه العريضتين مفسحا الطريق مما مكن السيدة ماريغو أن ترى كلب الجارة الصغير مكسور الساقين غارقا فى دمائه وقد اندلقت احشاؤه .

وفى خطوة واحدة وجدت نفسها فى الشارع :

ــ كيف وقع له ذلك ؟ كيف أصيب ؟

ــ ضربه أولاد الجيران الأشقياء .

وزحف الكلب الى قدميها ، كما لو كان قد عرفها ، وأسلم الروح ، وهو يئن فى صوت خفيض ..

ـ يا للمسكين !

وسألها الشرطى :

ـ أهو كلبك ؟

ـ انه كلب جارة لى .

ـ اذن ، ابتعدى عنه يا سيدتى ..

وصاحت السيدة ماريغو قائلة :

ـ أريد الطوق لآخذه اليها .

وحدجها الشرطى بنظرة من أعلى رأسها الى أخمص قدمها ، واقتنع ، فقد كانت تبدو بنت ناس .

ـ تفضلى ، لكن احترسى من أن تلوثك الدماء .

وانحنى يساعدها بنفسه ، ثم جذب الجثة الى جانب وقد تركت بقعة حمراء وسط الشارع . ولما تفرق الناس بقيت السيدة ماريغو الى جوار الكلب المقتول ووقف على مقربة منها اثنان أو ثلاثة من الأشقياء ـ صبيان خبثاء شاحبو الوجوه طوال السيقان .

ـ لماذا قتلوه ؟

أجل ، لماذا ؟ ! الأولاد انفسهم ما كانوا يعرفون . كى ينتقموا كانت عملية انتقام اذن . ممن ؟ من ميسمير .. من النظام .... المسألة معقدة جدا .

ونهرتهم السيدة ماريغو قائلة :

وما ذنب ميسمير ؟ بل وما ذنب الصغير الأبيض ذى النقط البنية ـ أجل ، هذا الكلب ، ما ذنبه يا أرذال ؟

وانسحب الأولاد الأرذال منكسي الرؤوس . ثم تركت السيدة ماريغو الجثة ودلفت الى باب العمارة .

كان السلم حجريا مظلما رطبا .. واجتازت ماريغو الـــدور الأرضي مسرعة وصعدت الى الطابق العلوى . كان باب ميسمير مغلقا كالمعتاد . وفى الضوء الخافت كانت تلمع مقابض البـــاب واللافتة التى تحمل اسمها .

وقرأته السيدة ماريغو مرة أخرى مقطعا مقطعا : مســــيز مير فور ميسمير .

كان هذا اسما صعبا .. وامتدت يدها الى الجرس لـــكنها ردتها فى الوقت المناسب . ووقفت تتذوق كل ذلك الهدوء السائد المتدفق من ثقب الباب . ثم اتت حركة سريعة محنكة صففت بها شعرها ، ورتبت « بلوزتها » ، ودقت الجرس .

وتجمع من نما الى علمهن من الجارات فى شقة السيدة ماريغو في انتظار اخبارها ، وقد خيم عليهن شجن غريب ، تماما كمـا لو كنت تنتظر احدا فى الظلام ولا يجيء .

وكن يقلن من وقت لآخر :

ــ لقد تأخرت .. أجل تأخرت .

وسمع صرير المفتاح فى باب الشقة بغتة . وبدت ماريغو عند المدخل وقد تغير حالها ، وانتابتها رعدة من أعلى رأسها الى اخمص قدميها والقت على اسماعهن أكثر الكلام غرابة :

ــ طردتنى .

ــ طردتك ؟ كيف طردتك ؟ وضحي . ولم تدل ماريغو أول الأمر

بأى ايضاح ، بل دخلت وخرجت منفعلة ، وتناولت ملعقة من المربى وشربت جرعة من الماء ليهدأ اضطرابها . ثم مضت تحكى مغامرتها .

كانت تقص قصتها ــ كما تفعل النساء ــ بطــــلاقة واطناب معرجة الى تلميحات عارضة ، مضيفة الى حديثها حفنــــة من السخافات مدخلة الــكثير من عندياتها فى روايتها .

بدأت قائلة :

ــ ماذا كنت أريد أن أقول ؟ .

ولم تنبس الجارات بشىء حتى لا ينقطع الخيط ، ولتضيع منهن جزئية مثيرة ، تركوها تتكلم ، كما لو كانت وحدها وأرادت أن تعيش ما حدث لها من جديد .

ــ قلت سأوفق باعتبارى امرأة . لكن أولئك الأجنبيات يعجبهن أن يخالطن الرجال فحسب . فتحت لى بنفسها بكل برود دون تحية أو أى شىء .

وجه جامد خال من كل احساس . انف سوى . يا له من انف ذلك الذى لهذا الشعب ! الشىء الوحيد الذى احسدها عليه هو الأنف ، ومع ذلك يجب الا نهزأ بالأنف الدميم . لأنهم يقولون أن الله قد تعب كثيرا فى خلق انف الانسان .

وخيم الصمت من جديد . ثم اردفت ماريغو قائلة :

ــ ولما رأيتها أمامى باردة كالثلج ، لا حركة فيها ، واضعة يدها على مقبض الباب فكرت : ربما كان سبب الحالة التى بدت عليها حزنها على كلبها ، فلممت كل ما أعرفه من لغتها وشرحت لها الأمر .

وعندئذ أومأت لى أن ادخل دون أن تنبس بكلمة . هذا فضل منها على أى حال ، لأنى تذكرت فجأة انك لو لم تعرف هؤلاء القوم بنفسك فانهم لا يكلمونك فانحنيت لها قائلة :

« أنا .. السيدة ماريا أرملة ايبا مينوندا .. جارتك بالطابق الأسفل .. أعمل كاتبة المراسلات بالغرفة التجارية كيف حالك ؟ أحوالى أنا سائرة قدر الامكان . الحمد لله.عالية تارة..ومنخفضة تارة . ماذا نفعل ؟ » .

امتلأت عيناها دهشة وتذكرت مرة أخرى أن على أن أردد كرجع الصدى : كيف حالك ؟ والا امضى فى الكلام بل انتظر اجابة ومن ثم سكت وأخذت أجول ببصرى من حولى .

منذ أمد طويل والفضول يتملكنى ان ادخل بيتها ، فمن غير المعقول الا يقرئك جارك تحية الصباح عشر سنوات . اننا نقول : ترى فى الصباح جارك قبل أن ترى الشمس .

كان الفضول مستحوذا على حقا لأن الدخول الى بيت المرأة هو السبيل لمعرفة أى صنف من النساء هى . ولكنى أعترف بأنى لم أتبين شيئا عندما دخلت بيتها . لا أنكر ان كل شىء كان نظيفا مرتبا ، الا أن الفضل فى ذلك يرجع الى الخادم .

كان هذا واضحا . انها تنقده أجرا طيبا ، كما تتغاضى عما يختلسه من المصروف ـ أو ربما كانت غافلة حقا عن ذلك . وهكذا تحصل على راحتها .

ويبذل الأسود قصارى جهده لارضائها ويجعل من نفسه ترابا تدوسه قدماها . يفعل المال كل شىء ، ويتكفل الخادم بكل المهام حتى احضار الورد ، ورد مما يحتمل طويلا ، يوضـع فى آنية نحاسية لا تنكسر ، فأولئك القوم يريدون كل شىء عمليا ومتينا .

كانت ميسمير التى التقيت بها فى البيت غير تلك التى نعرفها ونراها كل يوم فى الشارع . كانت شخصا آخر مضحكا للغاية . اعنى ، حتى لا نختلف ، لو كانت من بنات جنسنا لبدت مضحكة . أما هى فقد كان ما ترتديه منسجما عليها . كان الثوب فى لون

المشمش ، وقد عقدت رأسها بشريط أخضر . وكان شعرها لامعا ذلك اللمعان الجميل الذى تتميز به الشقراوات . وثبتت باقة من البنفسج الصناعى على خصرها . . اما الحلى فكثيرة : أقراط واسوار وخواتم ودبابيس . وكانت ذراعاها عاريتين حتى الأبط .

وسألتها فى أدب :

ـ هل تتأهبين للخروج الى حفلة راقصة ؟ .

فأجابتنى بالنفى فى جفاء ، كما لو كنت قد أخجلتها ، ففكرت فى انه ربما كان لديها ضيوف . وحتى لا أعطلها أوضحت لها انهم قتلوا كلبها ، وانى التقطت طوقه واحضرته اليها .

فقالت لى بصوت خال من الاكتراث :

ـ أرى ذلك . أرى ذلك .

ولم تبصرنى عيناها الا عندما وضعت الطوق على المنضدة ، لأن تلك العينين كانتا تنظران الى من قبل دون أن تبصرانى . وانطلقت بخفة مثل صبى ، واحضرت لى صورة عزيزها « بيلى » وكان « بيلى » اسم كلبها المقتول .

كانت الصورة تتدفق حيوية كما لو كانت ستتكلم . وكانت ميسمير جذابة وهى ممسكة بالصورة وتنظر الى بعينين حلوتين مبللتين ، مثل نافذتين مفتوحتين على بحر بلادى .

وسألتها :

ـ أليس لك أحد فى الدنيا يا عزيزتى ؟ .

فأجابت غاضبة :

ـ ماذا ؟ .

وسرعان ما أغلقت النافذتان الحلوتان .

ـ لى اخوة ، وأهل ، وزوج .

ـ لك زوج ؟ .

ـ بالطبع ، لى زوج .

ـ لا بد انه فى ساحة القتال .

ـ أولاده فى ساحة القتال ، أما هو فقد تزوج مرة اخرى .

قالت ذلك ببساطة كما لو لم يكن فى الأمر شىء ذو بال . واستطردت موضحة :

ـ عيشتنا تختلف عن عيشتكم ، لسنا مثلكم . انتم شرقيون كل منكم ملتصق بالآخرين ، والجميع ملتصقون بالاسرة . أما نحن فأحرار . رجال ونساء على السواء . يصنع كل منا حياته كما نشاء .

ـ اغنانى الله عن حرية من هذا القبيل ، تحرمنى الولد ، وكل قريب حبيب .

وتنهدت رغما عنى . ففهمت . ومهما قلت فهى امرأة .

ويخفتها السابقة مضت واحضرت لى صورة أخرى . كانت هذه المرة صورة انسان . شاب ذى انف سوى وعلى غاية من الوسامة . وكانت الصورة عتيقة بالية .

ـ أهو ابنك ؟

واستاءت من جديد ، كما لو كانت قد وجهت اليها اهانة . انه نجل احد ابناء عمومتها .

واستطردت تقول :

ـ ربما كان الآن فى ساحة القتال !!

واغرورقت عيناها بالدموع .

ـ هونى عليك ستنتهى الحرب وتزول .

ـ ولو مات ، فما الجدوى ؟ !

وأغرورقت عيناى أنا أيضا بالدموع . كلا ، لا تقلن انى تذكرت ابنى أنا ، بل انى ما تألمت الا لها . انى أمرأة ، وأعرف ما يعنيه ذلك .

وتذكرت أننا عندما كنا نذهب الى المخبأ كان فى صحبتنا أولادنا ، وهى فى صحبتها كلبها . وكنا كلنا نخاف على أولادنا بينما كانت هى تخاف على كلبها . واذا سرت فينا الرعدة فخشية على من نحب . أما هى فقد كان لها كلب تحبه ، وها هو الآن قد قتلوه .

ولهذا ذهبت تخرج صورة فوتوغرافية قديمة بالية لصبى قد يكون قد شب وصار رجلا ، رجلا فى منتصف العمر . أو ربما فتك به مرض فمات صغيرا ، ولم تعرف هى بالخبر وظلت ترتعد خوفا عليه ، لأنها كأمرأة فى حاجة الى أن ترتعد . أن ترتعد حبا حتى يكون لحياتها مبرر . ربما كان يحدوها أمل . فيم ؟ انها لا تعرف . كلنا نشبه بعضنا بعضا . اننا نأمل ونأمل أن ثمة من هو فى حاجة الينا .

انجذبت نحوها ، وفاض قلبى بحبها واردت أن أعبر لها عن شعورى ، أن أفعلَ شيئا من أجلها ، شيئا صغيرا ، شيئا يفصح لها عن عواطفى نحوها . وخطر لى أول الأمر أن اقبلها . على أن مَن الخير انى لم أفعلَ .

وتذكرت بغتة الحمص الذي كان معى فدسست يدى في جيبى وأخرجت القرطاس :

ـ هل تسمحين لى أن أقدم لك شيئا من هذا ؟

ولترين الآن ماذا حدث . أتعتقدين انها قالت لى كلمة شكر، أو أنها اخذت منى الحمص ، ثم اذا لم يرق لها لفظته ؟ !

كلا . لقـــــد نحت القرطاس بيدها جانبا ، وقالت مطبقة الأسنان :

ـ نحن لا نألف هذه الأشياء .

استأت من ذلك ، لكنى لم أنبس ببنت شفه . وما لبثت أن أردفت قائلة :

ـ طابت ليلتك .

ـ ماذا ؟

ـ أقول طابت ليلتك . لا أستطيع أن استبقيك وقتا أطول من ذلك ، فقد حانت ساعة الجلوس الى المائدة .

لم يكن عندها ضيوف ! كانت تطردنى ! كانت ســـتتناول العشاء بمفردها ! غارقة فى زينتها ووحدتها !

وقالت احدى الجارات المغرورات :

ـ لعمرى ، انها متعجرفة !

وصاحت جارة أخرى :

ـ العادة سجن . سجن هى العادة .

على أن ماريفو استرسلت فى خطراتها :

ـ وذلك بدلا من أن تقول لى : تفضلى ولو لمجرد المجاملة . وهل كنت أقبل أنا الدعوة ؟

لقد هممت أن اقول لها آنذاك : ونحن لم نألف هذه التصرفات عديمة الذوق .

ــ ولماذا لم تقولى لها ذلك ؟

ــ لا تكترثى بها . وطنها مجلل بالضباب ، معزول ، بيوته مغلقة ، انه بلد شحيح ..

أما نحن فقد نشأنا نشأة مختلفة فى فيض الشمس ، ورخاء الطبيعة ، عند ملتقى العالمين ... جو آخر .. وطباع أخرى .

وتمتمت السيدة ماريفو :

ــ وما الجدوى ؟ ألم أتلق أنا اهانتها ؟

يانيس مانجليس

الكسلان

كان انطوناكيس خانوس رجلا منكمشا ، هادىء الطبع ، لين العريكة . لم يكن يعجبه الصياح والضحك والكلام الكثير . كان صموتا ، وربما كان صمته راجعا الى مزاجه أو ربما كان يعزى الى تعاسته . كان متوسط القامة مترهل البدن خائر العزيمة ، ليس فيه من الرشاقة شيئا ... عيناه ذات لون كستنائى فاتح ، ترتسم فيها نظرة وجلة شاكية .

وكانت حرفته راكدة مثله . فى غرفة صغيرة عند طرف السوق . فى مواجهة الميناء تماما على لافتة برونزية صغيرة باهتة كتب : « خياط البلدة : انطونيوس خانوس » لكنه لم يكن فى الواقع خياطا ، بل مجرد مرقع ثياب ، يحيك من وقت لآخر سراويل للصيادين والعمال أو يقلب حلة على هدى من ذات خطوطها القديمة .

مسكين ، اذن انطوناكيس خانوس ، ومغلوب على امره . أخنى عليه الحظ ، كما أخنت عليه الطبيعة .

ولكن مثل كل أهل الجزر ، كان له بيت صغير . فى الخارج

عند طرف المدينة ، حيث تبدأ الحقول ، كان له بيت زوجته الذى ورثته أبا عن جد .

كانت زوجته نحيلة قصيرة ، ذات عينين ملتهبتين موجوعتين وقد فوضت أمرها وأسندت كل آمالها الى الله . لم تكن ترى المسكينة ان ثمة ملاذا غير ذلك . وكانت لها بنتان كبيرتان ناضجتان للزواج : لينيو ، شقراء ، ذات عينين زرقاوين ساذجتين ، فى الثالثة والعشرين ، من عمرها ، وأرغيرو ، وكانت تصغرها بسنتين شغالة فى حقول الغير ، حقول العنب والزيتون .

كانت الأم التعسة تدرك بكل جلاء أنه لا رجاء لهم فى انصلاح الحال ، فقد كانوا يعملون جميعا من الصباح الباكر الى الليل من أجل لقمة من عيش الشعير . والبنتان ، ماذا سيكون مصيرهما ؟ هل ستبقيان شقيتين وحيدتين ، هكذا ؟

كانت الأم تقول لنفسها « هو المسئول عن ذلك ، هو الخائب الكسلان ، فاتر العزيمة . انه لا يتكلم ، ولا يفكر . هذا الشقى تبدلت حواسه تماما . عليك ، يا قديستى ، يافانيرومينى ، ياجارتى عليك عقدت الأمل ، أيتها العذراء » .

كانت تخطىء فى فهم الصمت الذى عقد لسان انطوناكيس ، وتأوله على انه عدم اكتراث • أبدا ، لم تستطع هذه النسوة التلاث أن يفهمن العذاب الأخرس الذى يعانيه ذلك الانسان الوديع ، ولم يدركن افكاره الخفية ، وخفقات قلبه .

أراد الله أن يخلقه فقيرا بائسا ، وان يعزله نفسيا عن العالم كله ، طالما لم يشعر أحدا بعذابه الحى •

ومع ذلك ، فقد شقى كثيرا . كان يمثل أمام ناظرية بكل جلاء فقره ، وتعاسة اسرته ، وبنتاه تكبران ، وتذبلان قبل الأوان .

كثيرا ما كان يقول انطوناكيس دامى القلب محدثا نفسه « أه لو ارفع لينيو عن كاهلى ، حتى تتنفس اسرتى الصعداء قليلا» لكن الآمال التى كان يعلقها على كفايته الشخصية كانت جد قليلة ، وكان يعرف ذلك . فكان مثل زوجته يعلق كل آماله على القديسة العذراء فانيرومينى .

على انهم كانوا ينتظرون العون من هناك ، عبثا . وفى كثير من الأحيان كان انطوناكيس خاموس فى لحظات صمته يدرك ذلك .

كان يفكر فى أن القديسين كلهم ، الذين اختارهم السيد الرب عاشوا جائعين ، مرضى ، ومشردين .

كان لابد ، اذا أراد أن يفلح ، ويؤمن بنتيه فى غدهما، أن يفعل شيئا ، أن يتحرك ، وينشط .

ولكن ماذا يفعل ؟ لم يكن يعرف حرفة أخرى . ولم يكن عنده مال . لو كان عنده مال ! ايه ، كان سيعرف بالطبع ماذا سيفعل كان قد درس الأمر ، كان سيعطى فورا ميخاليس سكومبورذاس السمكرى العشرين الفا التى طلبها للزواج من لينيو ، ولفتح دكان بقالة صغيرا لأرغيرو التى كانت قادرة على تشغيله ، وتعرف قليلا من القراءة ــ والكتابة ، وبذلك كانت ستجمع بائنتها رويدا رويدا تلك المسكينة ، بدورها .

هذا ما كان يفكر فيه انطوناكيس خانوس طوال اليوم ، الآن ، وهو يضع الرقع على ما أبلاه البحر من سراويل ريتسينا . وبالليل كثيرا ما كان يستيقظ هذه الأيام ، ويقول لنفسه من أعماقه وقد غلبته المرارة « يجب أن تقتصد مالا ، يا انطوناكيس . يجب أن تقتصد مالا . عليك التزامات كبيرة ، يا أنطوناكيس ، قبل القديسة فانيرومينى العذراء ، وقبل أسرتك » .

وهكذا صارت هذه الفكرة قرارا استقر عزمه عليه . يجب .

يجب أن يدبر مالا . لكن كيف ذلك ؟ كان يفكر فى هذا الأمر ، ويفكر فى ذاك . دون جدوى . لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة . كان يعرفها . وسيلة واحدة ، وليس ثمة غيرها . لكنها كانت جد مخيفة حتى ان انطوناكيس الوديع كان يقشعر من مجرد التفكير فيها .. وفى النهاية ، اتخذ قراره ، سيشتغل غطاسا ، وليحدث ما هو مكتوب له .

والحق ان هذه المهنـة كانت تثير فيه الذعر منذ صـغره . كان ينظر بخوف الى الغطاسين السكارى ، الغطاسين البشوشـين الوسيمين ، يملأون دروب الجزيرة الهادئة بظلالهم المتعانقة ، وقد احمرت وجوههم من الشراب ، يتصايحون ، ويتبادلون النـكات الخارجة ، ويتدافعون بخشونة . ثم تلك الخوذات الباردة المخيفة كانت تجمد الدم فى عروقه .

أما الآن ، فما العمل ؟ ماذا كان بوسع الأب المسكين أن يفعل ؟

تنهد بمرارة . وقال « هذه مشيئة الله . لتكن مباركة مشيئته» ورسم علامة الصليب .

ثم فكر من جديد « سأذهب مع قافلة تصطاد فى المياه الضحلة على بعد عشر مسافة او اثنتى عشرة مسافة . وهكذا لن أتعرض لمخاطر جسيمة ، وسأنجو بجلدى . وهكذا سنحصل حالا على العشرين ألفا فى أول صيف ، سنزوج لينيو . وفى الصيف التالى سنشترى دكان البقالة الصغير . ولكن ، اذا حدث لنا شىء ؟ ايه ، ماذا سيكون مكتوب لنا ذلك . سيأخذ البنتان التعويض . الأربعين ألفا . وبذلك أيضا نزوج لينيو ونشترى الدكان الصغير . حمـدا لك يارب » وضحك انطوناكيس المسكين بمرارة .

قال ذلك ونفذ ما قال . كان فليفاريس فى اخرياته ، فانضـم انطوناكيس خانوس الى فرقة القبطان ميخاليس زفيجوس وقبض

مقدما ، بكل سماحة ، كما يقول صائدو الأسفنج ، خمسة آلاف ، أما الباقى فقد كان سيقبضه فى آخر الصيف .

وفى الليلة التى ابرم العقد ،بعد تناول العشاء ، رفع انطوناكيس عينيه العذبتين المتألمتين ، ونظر الى زوجته وابنتيه وقال فى هدوء.

« اتفقت مع القبطان ميخاليس زفيجوس. فى منتصف الشهر القادم ، باذن الله ، سنخرج الى البحر» حتى ذلك الوقت ، لم يفتح فمه بكلمة ، ولم يبح بأفكاره الحزينة .

نظرت اليه زوجته وابنتاه ، وارتسم الذعر فى عيونهن .

قالت الزوجة ، وهى تذرف الدموع الســـــاخنة من عينيها الموجوعتين :

ــ لماذا فعلت هذا ، يا انطوناكيس ؟ تريد أن تجعل منى أرملة وتيتم بنتيك ، وتتركنا ، ونحن نسوة ضعيفات على قارعة الطريق؟

خيم الصمت على البنتين ، واستغرقتا فى التفكير .

تنهد انطوناكيس من أعماق لبه فى سكون الغرفة الحــزين . ثم أردف يقول بعد هنيهة :

هذه مشيئة الله . ماذا بامكاننا نحن أن نفعل ؟ عندما يريد هو أمرا لا يبقى لنا سوى ان نرسم علامة الصليب ، ونحنى الرأس صابرين ونقول « حمداً لك يارب »

ورسم علامة الصليب راضيا .

ورسمت زوجته بدورها علامة الصليب ، وقالت نائحة « ايتها العذراء ، مدى لنا يد النجاة . ألم تغفر ذنوبنا بعـــد ؟ الى متى سنسأم العذاب » .

ورسمت البنتان الوجلتان بدورهما علامة الصليب .

كانت الأيام تمر . واقترب شهر مارس من اخرياته . وذات ليلة تحدث ميخاليس زفيجوس الى طاقم سفينته :

ـ أيها الفتيان ، فى الفجر عندما ستهب الريح المواتية ، سنقلع كونوا جميعا على اهبة الاستعداد عند المرسى . افيقوا . حذار ان يأتى احدكم ثملا ويدنس مركبى لأننى سأهشم له جنبيه .

قال القبطان ذلك بصوت غرد ، وهو يلوح بذراعيه الغليظتين مهددا .

عنـــــدما لاحت تباشير الصباح كانوا فى عرض البحر . كان انطوناكيس هو الوحيد بين أفراد الطاقم الذى كان متمالكا حواسه أما الباقون فقد كانوا لا يكادون يفيقون من فرط سكرهم . مضى القبطان يصيح فيهم غاضبا « أيها القذرون ، الكسالى ، الجاحدون سأخرجكم من الماء مثل بالات القماش .. سترون عندما نبـــدأ العمل » وصار يركلهم فى بطونهم بلا رحمة .

كان انطوناكيس يسمع ذلك ، ويتملكه الخوف ، كان يقـول لنفسه : انظر ، يا لها من قسوة ! بأى احتقار يتـــكلم عن حياة الانسان . هذا القبطان الذى لا يستحق ما كان يوليه من احترام . وجرأ انطوناكيس ان يقول له :

ـ ايه ، خل عنك ايها القبطان ميخاليس . هذه ألاعيب صبيان هم فتيان لم ينضجوا بعد . دعهم يستمتعون بحياتهم هؤلاء المساكين من يدرى كم منهم سيعودون آحياء سالمين .

آجابه القبطان بلهجة ضارية :

ـ اسكت انت ، يا انطوناكيس وفر وصاياك لدكانك . اما هنا فأنا الذى آمر .

وفي غمرة غضبه ضغط بشدة علي دفة القيادة .

من أغوار الأفق ، كان يفد ضوء شاحب ضعيف يكسو الأرض بجمال عذرى . رويدا رويدا ، كان الضوء يزداد سطوعا ، ويعلو ، ويصبغ بلون قرمزى ولؤلؤى كل الأرجاء القريبةوالبعيدة ، ويضفى جماله على الطبيعة كلها وعلى البشر جميعا .

كانوا قد خلفوا الجزيرة بعيدا وراءهم ، واقتربوا الآن من بعض الجزر الصغيرة الجرداء ــ غير المسكونة .

رطبت برودة البحر فى الصباح جباه السكارى ، فأفاقوا أو كادوا من غيبوبتهم ، وجلسوا شعث الشعور على سطح السفينة الشراعية بقمصانهم الصوفية السميكة المبرقشة ، ــ يحملقون صامتين الى البحر ، بعيون معتمة .

تعالى صوت القبطان فجأة بلهجة آمرة :

ــ القوا المرساة حتى نبدأ العمل .

ثم استدار بغتة الى انطوناكيس :

ــ هيا ، يا انطوناكيس ، ارسم علامة الصليب . ان هؤلاء الأوغاد لا يبصرون ما حولهم من فرط سكرهم .

نهض أنطوناكيس وجلا ، وألقى بنظرته الوديعة الى البحر .

يا الهى ، كم كان البحر مظلما ! كم كان عميقا ! اقشعر بدنه . كيف سينزل الى هناك ؟

أصاب الدوار راسه . ضغطت على قلبه قبضة جلدية صارمة ، وطردت الدماء من عروقه . ساعده رجلان فى ارتداء الرداء المشمعى الجاف . شدا السيور على يديه وقدميه ، حتى لا تتسرب مياه البحر وتخنقه . ربطا الحبل حول وسطه ، وأحكما وثاقه حتى لا يتسلل الهواء الى ساقيه فيملأ الرداء ويقلبه . ألبساه الحذاء الثقيل المصنوع من الخشب والحديد . طوقا رقبته

بالطوق الحديدى ذى الاثنى عشر مسمارا الذى يركب عليه غطاء الرأس . ووضعا على كتفيه كتلتين من الرصاص السميك . وبعد أن تمت هذه الطقوس علقا فى يده اليسرى الشبكة الطويلة التى سيودع فيها الاسفنج . كان غطاء الرأس أمامه ، على الأرض وكان باردا مخيفا .

وما أن انتهى من الارتداء ، نادى القبطان غطاسا آخر :

ــ ميتسو : ارفع غطاء الرأس .

أمسك الميكانيكى به بين يديه القويتين ، وأخذ القبطان يلقى تعليماته بصوت هادىء خفيض :

ــ انظر الى هنا ، يا انطوناكيس ، وانتبه ايها الشقى ، حتى تفهم ما أقوله ، لأنك خائب . انظر . أترى ما فى الجانب الأيسر من غطاء الرأس ، هذا الصمام ؟ من هنا ينزل اليك الهواء النقى ، كثيرا نظيفا . وسيمضى الميكانيكى يضخ لك الهواء بانتظام وبلا صعوبة ، وستحس كأنك على اليابسة تماما .

ولكن اذا امتلأ غطاء الرأس بالهواء وانتفخ الرداء ، فان الهواء الذى هو أخف من ماء البحر سيدفعك ويرفعك الى أعلى. ولن يصيبك من ذلك ضرر طالما كنا بالقرب منك ولم يكن ضغط الماء شديدا . كل ما فى الأمر هذا مضيعة لوقتك . ومن ثم تفتق ذهن صانع هذا الغطاء ان يزوده بصمام آخر . ها هو ذا . اذا ضغطت عليه ، خرج الهواء الفاسد والزائد عن الحاجة توا .

والآن ، سأربط فى يدك حبلا . واذا عثرت على صيد وفير شددت بقوة الحبل ثلاثا ، وسنفهم نحن ونلقى العلامة حتى لانفقد المكان .

أما اذا شددت الحبل مرة بقوة ثم أعقبتها بثلاث متتاليات ،

فسيعنى ذلك : ملأت الشبكة . ارسلوا الى غيرها . واذا رأيت سمكة تهددك بالخطر شد الحبل تباعا مرات عديدة .

هيه ، هذا كل شيء . هيا ، تصحبك السلامة الآن . ارسم علامة الصليب ، ولا تخف وتذكر : اذا وجدت صيدا وفيرا شد الحبل ثلاثا .

ورفع القبطان غطاء الرأس ليلبسه لأنطوناكيس ، لكنه قال:

ـ انتظر ، نسيت أن أخبرك عندما ستنزل الى البحر . حذار . سر بخطوات وئيدة . لا تقفز من صخرة . فالقفز المفاجىء خطر للغاية ، قد يودى بحياتك ، وقد يحطم عظمك ، فتصاب بالشلل طول حياتك . هيه ! هيا ، الآن ، وسر بخطوات وئيدة .

أصغى أنطوناكيس لما يقال . كانت كلمات القبطان تطن فى رأسه كخلية من النحل . وقد وعى بعضها ، ولكنه لم يع أغلبها.

وقد جعلته ضربات قلبه يسمع ويفهم غير ما يقال له . رفع يده المرتعشة ، ورسم علامة الصليب . وأخذ فكه يرتعد فى نوبة عصبية .

رآه القبطان وهو يرتعد لكنه صمت ، وقال لنفسه « انه مبتدىء . عندما سيغطس بضع مرات سيألف الأمر وينصلح حاله » . رفع الغطاء وأدخل فيه رأس انطوناكيس ثم أخذ يدير الغطاء نحو اليمين كى يلف المسامير ويربطها .

وبين الفينة والفينة ، كان الغطاء يئن من ضغط المسامير فيبعث القشعريرة فى نفس انطوناكيس الذى أحس بسكين يقطع قلبه .

وعندما انتهت كل هذه العملية ، رفع القبطان عقيرته حتى يسمعه انطوناكيس :

ـ هيه ! مبروك ، يا انطوناكيس ، واملأ لنا الشبكة اسفنجا.

دار سير المضخة فجأة دورات منتظمة ، وعلا صوتها في ضربات منتظمة ، مرسلة الهواء الى لبـــاس الغطس . جذب انطوناكيس الى أسفل من ثقل الرداء الذى يحوطه ، وقد شل من شدة الخوف الذى ركبه . جر قدميه ببطء على أرض السفينة، وأمسك بالسلم الصغير متأهبا للنزول .

ومن خلال منظار الغطاء ، رأى انطوناكيس البحـــر العميق مرة أخرى ، وأحس بالعرق يتصبب من جسده كله .

تمتم قائلا « يا الهى ، لا تأخذنى ، دعنى أعيش قليلا » ولكن هذه الكلمات ترددت فى أعماقه كدقات طبل أجوف ، ولم تزوده بأدنى قوة . ومن شدة خوفه ، ظل متشبثا بالســلم لا يريد أن يفارقه .

انطلقت الشتائم من فم القبطان بصوت هادر : « أيها الكلب القذر ، لم تمانع عندما قبضت نقودك مقدما » .

انبطح أرضا فى غمضة عين عند حافة الســفينة ، وأمسك بعنف يدى انطوناكيس ، وألقى به الى البحر .

أخذ الهواء يخرج من الصمام الأيسر ، وبدأ الغطاس يغوص فى اللجة .

وكلما أوغل فى الغوص غطى وجه البحر بفقاقيع صغيرة ، لا تلبث أن تتكسر هائجة عند السطح .

وفوق ، كانت المضخة تعمل بلا انقطاع ، وكان سيرها الجلدى يدور دورانا شيطانيا ، مزودا الغطاس بالهواء . وعنــد حافة السفينة وقف احد العمال يرخى الحبل بحذر كلما شد الحبل .

أما صبى السفينة فقد جلس متربعا ، ومضى يرخى الخرطوم

بلا انقطاع وهو يرقب الساعة ، ويصيح بلهجة منغمة مشيرا ، الى الثوانى التى انقضت على نزول الغطاس الى أعماق البحر :

ثانية ، ثانيتان ، ثلاث ثوان ، أربع ثوان ...

وشاركه غطاس آخر ، ومضى فى الصياح بدوره فى لهجة غنائية ، وقد انعكست فى صوته المعاناة التى يلقاها زميله حيثما نزل .

عشر ، احدى عشر ، عشر ، احدى عشرة ، احدى عشرة ، احدى عشرة .

مضت عشر دقائق ثم احدى عشرة دقيقة ، ثم اثنتا عشرة ، ثم ثلاث عشرة . ومن تحت من أعماق البحر لم يرد نبأ ، ولم يشد الحبل قط . رفع العامل المنظار الزجاجى . غسله بماء البحر، رجه بشدة ، ونظفه جيدا . ثم وضعه على سطح البحر ، ودس رأسه فيه ، ودقق النظر منه .

كانت شمس الصباح مازالت واهنة ، تلاطف اشعتها الجذلة وجه البحر . وقد بدأت تكتسى بالقوة على التسلل اليه واضاءة جوانبه .

وتحت ، كان قاع البحر مليئا بالطحالب الكثيفة الطويلة ،مما كان يزيد القاع قتامة وسوادا . ولهذا لم يتمكن العامل من أن يبصر الأعماق بجلاء . فرفع راسه ، وقال بصوت ثقيل : الظلمة حالكة تحت ، أيها القبطان . لم يشتد نور الصباح بعد . وجذب المنظار خارج الماء . واصل الصبى العد بلا توقف :

اربع عشرة ثانية ، أربع عشرة ثانية ، اربع عشرة ثانية ... وفى لحظة قال القبطان آمرا :

ـ اجذبوه ، لنخرجه . فهو مبتدىء .

عقب العامل قائلا :

ـ مبتدىء ، لكنه انسان عزيز النفس .

أمسك الميكانيكيان بالخرطوم والحبل وشرعا يشدانهما .

قال القبطان :

ـ لو ملأ هذا الأحمق رداءه بالهواء رويدا رويدا ، لقذف به الى أعلى على ما يرام ...

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق أخرجوه الى سطح البحر ، لكن انطوناكيس لم يمد ذراعيه ليمسك بالسلم الصغير ، ويصعد .

ظهر للعيان مثل لفافة كئيبة ، طويلة أحكم وثاقها .

قال القبطان بصوت شرس :

ـ لعنة الله عليه . ماذا حدث له ؟

انكفأ على الأرض ، وانقض عليه ، ممسكا به . تلقفه اثنان أو ثلاثة من الآخرين وجذبوه .

لم يقف انطوناكيس على قدميه . مال رأسه جانبا داخل الغطاء . واصطبغ وجهه بلون أسود أخضر وتناثرت عليه بقع حمراء ، هنا وهناك . واختفى من عينيه اللتين كانتا نصف مفتوحتين كل أثر للسواد .

صاح القبطان :

ـ اوكسيجين .. حالا .. أوكسيجين ... حتى لا يضيع الرجل .

حملوه والقوا به الى البحـــر من جديد . أنزلوه الى نصف قامته ، وعلقوه هكذا . كان السير يدور الآن بسرعة أكبر ،فيزيد عدد دوراته . كان الهواء يمر فى الخرطوم نقيا متدفقا .

وبفضل هذا الذى يسميه الميكانيكيون « اوكسيجينا » كثير من المقعدين ، وانصاف المشلولين يشفون تماما . وآخرون أيضا يتحسنون الى الحد الذى يمكنهم أن يحركوا أيديهم ويجـــروا قدميهم ، ورويدا رويدا على مر السنين ، ينفض عنها الخمـول حتى يصير باستطاعتهم أن يتنقلوا بطلاقة لا بأس بها ، وأن كانوا يعرجون فى سيرهم أو يجرجرون خطواتهم .

استبد القلق بكل الذين على السفينة . وكان القبطان يتأجج حنقا ، وتقـــدح عيناه شررا . وكان يبـــدو بذراعيه الغليظتـين المفتوحتين اللتين يلوح بهما يمنة ويسرة مثل وحش ضار .

كان الوقت يمر . نصف ساعة ، ثلاثة أرباع ساعة .

صاح القبطان من جديد :

ـ هيا ، أجذبوه .

أندفع الطاقم كله الى الخراطيم والحبال .

عندما رفعوه ، لم يقف انطوناكيس على قدميه ، وصــــار الآن أسود مثل مسوح الرهبان. سنده اثنان من البحارة ممسكين به من ابطيه ، وشرع القبطان يفك غطاء الرأس . وعندما تحـرر الرأس مال وسقط جانبا . تناول القبطان الوجـــه بين يديه . وقال :

ـ يا للعنة ، مازال دافئا . لابد انه حى. املأوا الدلاء من البحر حتى نجعله يفيق .

لكن الى أن يخلعوا عنه الرداء المطـــــاطى ،،دبت البرودة فى جسد انطوناكيس ، وتخشب . وفجأة توقفت المحاولات وماتت الآمال .

قال أحد الحاضرين ، وهو يرسم علامة الصليب :-

ـ فليرحمه الله .

رسم الجميع علامة الصليب منكسى الرؤوس . لم يتحـــرك احد فى المركب . ارتسمت الرهبةعلى قسمات الرجال،وتسمرت عيونهم على الجسد الذى دبت فيه زرقة الموت .

همس احد الموجودين قائلا :

ـ مسكين ، يا انطوناكيس ، ماذا كان فى انتظارك ..

وخيم الذعر على الجميع . مضوا يهزون رؤوسهم فى حزن، وينظرون الى الجسد المسجى ويتفكرون ان المصـــير ذاته بكل قسوته لهم بالمرصاد أيضا .

مزق صوت القبطان السكون الحزين ، قائلا بقوة :

ـ هيا ، رأسا ، الى الميناء ننقل الجثمان .

أداروا المحرك . مضى المركب يشق المياه الساكنة بمضاء . صعدت الشمس فى الســماء ، واتقدت حرارتهـا . وأصبحت أشعتها المتكاثرة تشق غلالة البحر الشفافة .

شردت أنظار الجميع صــــوب الجزيرة ، وسرحت أفـكارهم بعيدا ، بعيدا لا يدري أحد الى أين .

وفى لحظة ، ألقى القبطان على الجثمان نظرة تقطر كراهية. وتمتم قائلا :

ـ لعنة الله عليك ، أيها النكد المنحوس . دنست مركبي.. وناهيك عما ستسببه لي من متاعب ، وما ســـتحملني به من تعويضات .

تسللت هذه الأفكار الى خاطره ، فصعد الدم الى عينيه .

مضى المركب يداعب المياه الزرقاء الخضراء ، ويجــرى خلي البال ، مقتربا من الجزيرة .

اما الشمس التي تزايد دفؤها فكانت تلاطف برقة البحــر الراقد ، فينتشي وتسرى الرعشة في مياهه .

بيتروس خاريس

العودة
الى الميدان
الصغير

كان قد وصل الى الميناء على السفينة الايطالية التى تعمل على الخط الملاحى قبيل التاسعة . لكن لم يفده شيئا سعيه الحثيث لكى يكون فى مقدمة النازلين من السلم الذى القت به السفينة . فعندما انتهى موظف الجوازات من فحص أوراقه، وفتشت حقيبتاه فى الجمرك دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا . ثم مضت نصف ساعة أخرى وأبوه وأخته الكبيرة يذرعان بخطى قصيرة متلهفة الرصيف الذى كان ينتظره عليه أقارب آخرون وأصدقاء من الخارج . ولم يصعد الدرجات الى بيته الا ساعة القيلولة وقد غرق أهل أثينا فى نومهم المتعب وتصببوا عرقا من شدة الحر الذى عرف به شهر يوليو .

عاد الشاب من فيينا ، وكان ينظر الى أهله فخورا . قضى أربع سنوات فى العاصمة الكبيرة التى ولئن كان قد ولى مجدها الغابر الا انها كانت لاتزال تحتفظ بمكانتها فى بعض فروع الطب . وقد جلب الشاب خبرة كافية ستجعل الناس فى أثينا يقبلون على طلبها كلما مرت الايام . كان جده وأبوه من بعده طبيبين معروفين ولهما زبائنهما . وقد قدما الكثير من الخدمات لثلاثة

اجيال متلاحقة فى أثينا القديمة . ولكنهما لم يزورا أية عاصمة من العواصم الأجنبية رغم انهما استشعرا في بعض اللحظـــات الحاجة الى مثل هذه الزيارات . وقد لمح أبوه على الأخص نى عيون بعض مرضاه انهم كانوا يفضلون لو انه كان قد قام برحلات الى الخارج . ففى عصرنا ، يجب أن يلقى حتى أبرع الأطبـــاء نظرة الى الخارج ، ويتابع تطورات « العلم » ؛ ولهذا ؛ ما ان نال الابن شهادته ، حتى أرسلته أسرته الى فيينا ، ولم تســتعجل عودته في أى خطاب من خطاباتها اليه . « عليك بالمعرفة كلها ، لا تكتف بمعرفة مبتسرة مثل أولئك الذين يثيرون سخريتنا » .

استغرقت الأسئلة الأولية ســاعتين ونصف . أفراد الأسرة كلهم من حوله ، يستفسرون ويشبعون فضولهم ، منصتين اليه كل الانصات . وقد روى لهم عن حياته العصرية فى فيينا . أما هم فلم يكن لديهم الكثير يقولونه له . والقليل الذى حكــوه له كان ترديدا لأحداث ليس فيها جديد ، لا فى بيته ولا فى أثينــا كلها . وهكذا كان هو أول من كف عن توجيه الأسئلة فقد أحس بأنه يقف على الأرض ذاتها ، على الأرض التى عرفها ، وسكت . ولم يلبث أفراد الأسرة أن سكتوا بدورهم . كانوا قد دققوا النظر فى عينيه ، فلم يطرف له جفن ، وتأكدوا من انه لن يكن يخفى عنهم اخبار التردى فى مغامرة غرامية أو فتنة من آلاف الفتن ، تلك الأخبار التى يحذر الشبان البوح بها فى الأيام الأولى بعــد عودتهم من العواصم الأوروبية . قرعت الأسرة الــكؤوس مرة أخرى ، وهم أفرادها بالانصراف عن المائدة . وعندئذ قال الأب:

ــ انتظرونى لحظة .

وخرج من غرفة الطعام .

وصاحت الأخت الصغرى ضاحكة :

ــ اللافتة ! سيحضر اللافتة !

نهرتها أمها قائلة :

ـ اسكتى !

وانسكبت فى وجهها الوان تتدفق حيوية وتأثرا شديدا .

لمح الابن التغير الذى طرأ توا ، وسأل فى قلق :

ـ هل حدث شيء ؟

وأجال بصره فيمن حوله جميعا .

بدا عليهم ان ثمة امرا يعرفونه ويترقبونه .

ـ لا شيء . سترى ، الآن .

لم يتسع الوقت حتى يقولوا له المزيد . فقد عاد الطبيب العجوز يحمل لافتة صغيرة من ذلك النوع الذى يضعه الأطباء والمحامون والمهندسون على أبوابهم .

اقترب أبوه منه ، وأراه اياها ، ونظر اليها بوقار . أخفى بصعوبة بعض الانفعال ، وقال له :

ـ كلفت بصنعها عندما كتبت لى تنبئنى بعودتك . انزع اللافتة القديمة التى تحمل اسمى وحده ، وضع هذه مكانها .

واعطاها له . كانت لوحة من المعدن الرقيق حفر عليها اسمان . اسم الأب أولا ويليه اسم الابن . وتحت الاسمين كتبت مهنتهما : الطبيبان .

تابعت الأسرة كلها المشهد بتأثر مكبوت . كان الأب يعرفان هذه اللحظة آتية . وكان يعد لها . كان الجميع ينتظرونها بدورهم ، وهاهم يحيونها فى النهاية ، كما لو كانت حدثا يمثل نقطة تحول فى تاريخ الأسرة .

أخذ الطبيب الشاب اللوحة المعدنية بين يديه ، وتأملها بضع

لحظات ، ونظر فى عينى أبيه ، ولم يقل شيئا . ثم انحنى وقبل يده .

عندما انتهى الحفل ، كانت ساعات الظهيرة الحارة قد انصرمت . فبدأ الجيران يستيقظون من نومهم الثقيل الذى يحتمه شهر يوليو ، ويفتحون نوافذهم التى ما عادت الشمس تسلط سياطها عليها .

وعندما وجد الشاب العائد نفسه وحيدا فى غرفته ، أخذت الذكريات تصحو فى قلبه من جديد . كل شيء فى مكانه ، كما لو كان هذا المكان الذى أمضى فيه طفولته وصباه قد أصبح متحفا ، فلم يسمح أهل البيت بنقل أى شيء من موضعه . ها هى المرآة المربعة الصغيرة معلقة أيضا فى مكانها القديم الذى احتلته منذ أن بدأ يحلق ذقنه أمامها عند بلوغه السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمره . وعندما وقف أمامها تحولت الى مرآة سحرية، مرآة الحواديت والحكايات الخرافية . تدافعت فى هذا الاطار المربع حياة بأسرها . كانت تبتسم وتثرثر ، ومن فرط عنفوانها بدت كما لو كانت ستكسر اللوح المصقول . ولم يكن الشاب ليبتعد عن المرآة ، ولم يكن ليشيح ببصره عن الحياة التى كان يراها تترى أمامه . حاول أن يحلق ذقنه ، لكنه لم ير فى المرآة وجهه وحده. كم من أشياء اتسع لها ذلك المربع الصغير وكم من أشياء كانت فى طريقها اليه . صبيان ، وبنات ، صداقات ، أولئك الذين أحبهم وأولئك الذين نفر منهم ، العاب مجنونة ، الرحلات الأولى الى خارج المدينة ، وبمنأى عن سيطرة الكبار ، وكل ما صاحب تلك الرحلات من لهفات كبيرة . انصرف الأولاد ، والفتيان ، والصبايا من أمامه ، وجاءت وجوه أخرى فرحة ، غاضبة ، حزينة ، ثم زالت هذه الوجوه بدورها لتظهر غيرها أيضا محلها مثل دوامة من الرقص لا تهمد حركاتها . على أن ثمة منظرا واحدا

تسمر في مكانه ، ولم ينمح من لوحة المرآة . اكتسى بألوان عديدة لكن شكله لم يكن يتغير ، منظر ميدان صغير ، ينبض بحياة خفية، رغم مساحته الضيقة ، بل كان يبدو أكثر انحصارا بسبب الأشجار التي تحيط به ، وتفيء عليه بظلها الظليل.

لم تستغرق الحلاقة منه كل هذا الوقت قط . ومع ذلك فقد كان يريد ان يفرغ منها سريعا ، كي ينزل الى الشارع ، ويسير إقيه ثلاثمائة أو ثلاثمائة وخمسين مترا ليصل الى المكان الذي ظل منظره منطبعا على الدوام في مرآته الصغيرة المربعة . كان يبدو أنه حقيقي أحيانا ، ويبدو أنه لوحة من « الأكواريل » أحيانا . كانت لا تفارقه الحياة تارة ، وكانت تضيئه الذكرى تارة أخرى. كانت هذه الذكرى تشتد ، ويزداد نورها . وتصير كتلة خالصة النقاء ، على مر الأيام . أصبح يرى الآن الميدان الصغير وقد ارتسم أمامه في المرآة بوضوح . كان ميدانا مستديرا كما لو كان قد رسم بالبرجل . يحوطه كثير من أشجار الصنوبر والفلفل الباسقة . وفي وسطه أحواض منسقة حافلة بأزهار معتنى بها ، لا تشكو عطشا . وقد تناثر في الميدان بعض الأرائك هنا وهناك، وعدد من أعمدة التليفون ، أغلبها من الخشب ، وقليلها من الحديد ، هي من بقايا نظام الاضاءة القديم في العاصمة . وفي أحد الأطراف مقهى صغير وبضع مناضد . ميدان عادي بسيط ، هو متنزه الحي المحيط به كله .

تذكر الطبيب الشاب أن ميدانهم كان يصيبه التشويه في بعض الأوقات. فقد كان الى جوار المقهى أرض فضاء غير مزروعة. وكان رجال البلدية يكدسون فيها رمالا وحصى كلماجاءوا ليعبدوا واحدا من الشوارع المجاورة . عندئذ كان أهل الحي يبعثون بشكاواهم الى المحافظ ، ويدبجون عرائض ضافية يثقلونها بالعديد من التوقيعات . وكان من نتيجة ذلك الا يبقى الرمل

والحصى أياما عديدة . كانوا يريدون ميدانهم نظيفا ومعتنى به . وكان الجميع يذودون عنه ، ويسهرون عليه ، ويحمـــونه من الاخطار المتنوعة التى كانت تتهدده . كان الميدان منذ ســـنوات عديدة مقفلا هادئا مثل قلب بيت عتيق لا يحتمل ادخال تعديلات عليه . وكان يحمل اسم حاكم من الحكام القدامى .

ولكل من الرجال ، بل ومن صبيان الأمس ، قصة مع هــذا الميدان . ففيه تم أول لقاء بين أغلب فتيان الشوارع المحيطـــة وفتياتهــا . وكل منهم عنــد مروره بالميدان وحيدا ذات ليـــلة من ليالى الأسبوع أوالشهر أوالسنة فى أوبته الى بيتهيذكرناحية لم يكن بالامكان أن يجد مثلها فى وقت من الأوقات بأى شارع ، أو ميدان ، أو مدينة ــ لم يكن يجد مثلها فى غير هذا الميـدان . ولقــد وجــد الطبيب الشــاب فورا على صفحة المرآة المربعــة ساعته ومكانه هو . رأى مكانه تحت شجرة ضخمة من اشـــجار الصنوبر فى الجانب الشرقى من الميدان ، فى ليلة من ليالى الخريف انها الآن قد تزوجت ، ورحلت بعيدا عن الميدان ، وعن شـــجرة الصنوبر ، ومضى بها الزمن بعيدا عن تلك الليلة ، لكن ربما لم تكن تلك الحبيبة نائية الى هذا الحد ، ربما لم تكن قد بعدت خطوة واحــدة ..

صاحت به والدته من المشى :

ــ عجبا ! أمازلت تحلق ذقنك ؟ كان الله فى عونك .

فرغ الآن من الحلاقة . لكن هذه الحلاقة قداستغرقت خمسا او ستا ، أو سبعا من السنوات ، استغرقت صباه كله .

نزل الى الشارع ، وأخذ يسير على غير هدى . كان يريد أن يستنشق بعض الهواء قبل أن تبدأ الزيارات التى لاتنتهى. فعندما أمر أبوه بعمل اللافتة الجديدة ، أبلغت أمه الخبر الى الأقارب

والأصدقاء . وسيغص البيت الليلة بالقبلات والاستفسارات والفضول والسخافات الصغيرة ، من تلك اللاتي يحطن كل من يعود من الخارج بعد سنوات من الدراسة أو المغامرات . بعد قليل ستملأ الظلال الميدان المجاور الذي مالبث أن عاد الى المثول في مخيلته من جديد . هاهو الآن خارج غرفة طفولته وصباه ، وخارج مرآته السحرية ، وهاهو ذا الميدان يغريه في قوة للذهاب اليه . أوسع خطاه وانفتح قلبه برجاء حار . لايريد أن يلتقي ولا بأعز أحبائه ، ولا بأجمل فتاة في أثينا ، حتى يصل الى هناك حرا وحيدا .

بعد قليل سمع امرأتين يتمتمان بشيء ، وتناهى الى سمعه :

ـ انه ابن الطبيب ، يا شيخة !

تظاهر بأنه لم يسمع . ومضى قدما ، حتى وصل الى نهاية الشارع . وقف هناك ، دون أن يدرك ما حوله . أين هو ؟ اين الميدان ؟ بل وأين كان ذلك المكان وتلك الساعة ، وذلك الخريف ؟ أجال بصره من حوله ، وتردد . قدح ذهنه ، حاول ، لكنه لم يتعرف الا بصعوبة ، كما نتعرف على صديق قديم . تغيرت قسمات وجهه وعلاها التعب .

ربما لم تنقص أشجار الصنوبر واحدة . كما كانت غالبية أشجار الفلفل في مكانها . أما الأحواض الصغيرة ، فقد بدت كما لو كانت قد ولت هاربة أمام خطر داهم ، فلم تخلف وراءها سوى آثار باهتة : بعض من شباك الاسلاك ، وبعض الخطوط الشاحبة جعلت من الميدان سهلا مقسما الى حقول جرداء . وعند الطرف في مكان المقهى الصغير قام الآن مبنى ابيض صغير ، هو محطة للبنزين ، ألحقت بها « ورشة » ضخمة للسيارات . وتناثرت من حولها سيارات للنقل ، بعضها كبير والآخر صغير ، بعضها جديد والآخر خرب . فقد استخدم المكان « جراجا » مكشوفا للعربات .

تسمر الطبيب الشاب في مكانه . وجال بصره وجال ، وبعد

قليل تذكر ان ميدانا آخر فى جهة منعزلة كان قد استحال قبل سفره الى موقف لعربات « الكارو » لكن هذا الخاطر لم يدخل شيئا من العزاء الى نفسه • وجاب الميدان بخطوات بطيئة حزينة ، تلاحقه همسات لا يسمعها الا قلبه •

السيارات ورائحة البنزين فى كل مكان • وشعار الورشة فى كل الانحاء • كان مثل ديك على السطح ، فوق المبنى الابيض ، يأمر ، ويصيح ، وينفر ، ويطرد كل من يجيء بخطوات بطيئة ، وكل من تصيبه رائحة البنزين بالدوار •

اخذ الليل يرخى سدوله • وبدأت تفد عربات نقل اخرى ، وآلات اخرى كانت تزفر وتتنهد بمجرد أن تقف ، وعجلات أخرى كانت تئن وتولول بمجرد أن تكف عن الدوران . كانت الظلال تتكاثف لكن الطبيب الشاب لم يبرح المكان . بقى الى أن همدت كل الآلات ، وخيم الصمت على الميدان الصغير . وكان سيبقى وقتا أطول لكن ضوءا قويا أيقظه ، وبدل حاله ، أمسى شعار الورشة الآن عينا كبيرة شديدة الحمرة ، تلقى ضوءا قويا ، وتصب عليه لهبا .

سار بضع خطوات بطيئة اخرى ، بضع خطوات قليلة ، قليلة جدا • استدار • ورأى من جديد العين الحمراء الضخمة ، وانتابه الذعر • رأى هذه العين ، ولم ير شيئا غيرها •

كان قد ابتعد الآن ، عندما استدار ليلقى نظرة اخرى • لكنه لم يرشيئا جديد • كان الميدان الصغير قد اختفى • كان قد مات •

فهرس

صفحة

مقدمة ٣
اهداء ٢٧
الحقد فى قلب كاميناس ٢٩
أغاريد ٣٥
الخادمان ٤٧
الكلب الغريب ٦٣
ولاية ڤرچينيا ٨١
طائر مقتول ٨٩
أحلام للغد ٩٧
اليكسى سائق العربة ١٠٥
صداقة ١٢٩
معجزة لقاء الانسان للانسان ١٤٣
جارتان ١٥٥
الكسلان ١٦٧
العودة الى الميدان الصغير ١٨٣

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

صحافة

الثمن ٢٠